
كتاب
الهلال
نجيب محفوظ
وأصداء معاصرة
كمال النجمي
Bibliotheca Alexandrina
01688812





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٩ - جمادى الثانى ١٤١٠ - يناير ١٩٩٠ KITAB AL-HILAL

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرش :

لبنان : ٧٠٠ ليرة ، الاردن : ٦٠٠ فلس ، الكويت : ٥٠٠ فلس ، العراق : ٢٥٠٠ فلس ، السعودية : ٧ ريالات ، البحرين : ١٢٠٠ فلس ، الدوحة : ٨ ريالات ، دبى : ٨ دراهم ، ابوظبى : ٨ دراهم ، مسقط : ٨٠٠ بيسة ، تونس : ١٦٥٠ مليما ، المغرب : ٢٠ درهما ، غزة والضفة : ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية : ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية : ٢ دولار ، ايطاليا : ٣٩٠٠ ليرة ، لندن : ٥٠ر١ جك .

الغلاف تصميم الفنان :
محمد أبو طالب

نجيب محفوظ

وأصداء معاصريه

بقلم

كمال النجمي

دار الهلال

مقدمة

بين اوائل الستينات وأواخر السبعينات كتبنا المقالات التى يحتويها هذا الكتاب ، خلال عملنا الصحفى حينذاك فى النقد الأدبى ، وقد وددت لو ضممت اليها هنا اخواتها الكثيرات ، ولكن حال دون ذلك انه يحتاج الى كتب كثيرة لا كتاب واحد ..

وكان من حسن الطالع أن الكثير من تلك المقالات يدور حول اديبنا الكبير نجيب محفوظ وأعماله فى الرواية والقصة القصيرة خلال ذينك العقدين الحافلين بالتقلبات والتطورات .

ولو اعطتنا الأمانى مقادتها لاستكثرنا فى كتابنا هذا من أعمال الاسماء الكبيرة الأخرى فى تلك المرحلة الخصبة من تاريخنا الادبى والاجتماعى والسياسى ولكن الضرورة اقتضت ان نجتزىء من كل اولئك بهذه الوقفات الوامضة عند عدد من الاسماء التى ملأت الدنيا وشغلت الناس .

ولا يخفى ان الفضلاء الذين ذكرناهم او وقفنا عندهم ، ليسوا هم كل معاصرى نجيب محفوظ ، وليس ما تكلمنا عليه من أعمالهم ، هو كل تلك الاعمال .. ومع ذلك نرجو ان تكون هذه الصورة لنجيب محفوظ وعدد من معاصريه فى تلك المرحلة من الفكر والادب ، قد جمعت من ملامحه وملامحهم ، ومن شجون عصره وعصرهم ما يوافق الحقيقة الجوهرية الشاملة للأدب والادباء فى تلك الايام ..

ونجيب محفوظ رمز متجدد للأدب المصرى خاصة ، والأدب العربى عامة ، واسمه الكبير يجر أسماء معاصريه من مختلف المنازع والاتجاهات ، ويدل عليهم كما تدل عليه اسماؤهم وتنادى اسمه من قريب .. ولهذا كان اسمه فى عنوان هذا الكتاب ، دليلا على اسمائهم جميعا ، لابديلا لها ..

وسوف يبقى نجيب محفوظ ومعاصروه ـ وما اكثرهم وأطيبهم ـ ثلة من النابغين النابهين لا تبرح مكانها فى ضمائر الاجيال المتعاقبة .. أو كما قال شاعرنا «شوقى» فى هذا المعنى :

إذا مرت به الاجيال تترى ... سمعت لها أزيزا وابتهالا

كمال النجمى .

نجيب محفوظ و ٢٣ يوليو

ماذا جرى بعد يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟!
بحثا وراء اجابة عن هذا السؤال ، كتب نجيب محفوظ رواية « السمان والخريف » .. وهى تجسيد مختصر لفنه الروائى ، وأول رواية يمس فيها أحداثا تتعلق مباشرة بما جرى بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فيقتـرب من الحيـاة اليومية لشـعبنا ، أكثر مما اقترب فى كل رواياته التى سبقت « السمان والخريف » .

ولا نسـتطيع بطبيعة الحال تلخيص الرواية تلخيصا شافيا ، فانها بناء عضوى متكامل ..
ولكن يمكن التقاط صورة مصغرة لهذا البناء المتكامل ، تبدو من خلالها بعض ملامح القصة ..

فالبطل شاب مرموق من شـباب الاحزاب التى انتهى دورها بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. تفاجئه الحـوادث فيفقد اتجاهه ، ويعجز عن مسـايرة الاحوال الجديدة ، وينتهى الى الضياع .

والبطل هنا نموذجى ، يمثل قطاعا كبيرا من البورجوازية الصغيرة المصرية المثقفة التى لم تفهم معنى ما جرى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ان البورجوازى الصغير بطبيعته يمـلك فلسفة طبقية

خاصة ، فهو ليس رأسماليا لتكون له فلسفة الطبقة الرأسماليه ، وليس اقطاعيا لتكون له فلسفه الاقطاعيين ٠
ولهذا يذهب فى بحثه عن الفلسفة الاجتماعية الى اليمين فيصبح فاشستيا مثلا ، أو يذهب الى اليسار ليصبح شيوعيا ٠٠ وكثيرا ما يركب الموجة المنتصرة ، ويتلون بلونها ٠

ولكن ٢٣ يوليو دعا البورجوازيين الصغار الى فلسفة جديدة ، ليست الى اليمين الاقصى ، ولا الى اليسار المتطرف٠
ومن هنا كانت أزمة مثقفى هذه الطبقة ، وهى أزمة لم يتعرض لها الفلاحون مثلا ، لان مصالحهم ثابتة واضحة فى برنامج ٢٣ يوليو منذ الشهور الاولى ٠

هذا هو الموضوع الهام الذى عالجه نجيب محفوظ فى « السمان والخريف » واحاله الى قصة رائعة ٠٠

أن بطل القصة الشاب « عيسى الدباغ » ٠٠ كان يعد نفسه لكرسى الوزارة بعد جولة او جولتين فى الحياة الحزبية ، ولكن ٢٣ يوليو قلب جميع الصفحات القديمة ، وطوى كل الخطط التى رسمها عيسى الدباغ ! ٠

ومصير هذا الفرد ، هو الخط الرئيسى فى القصة ٠٠ انسان له اهداف شخصية : المنصب والثروة والحب والبيت والحياة العريضة ٠٠

الاحداث الشخصية المتعلقة بهذه الاهداف ، تنمو فى القصة نموا عضويا يلتحم بأوسع الاحداث العامة واضخمها ٠٠ كبريات الحوادث لا تتطفل على الحوادث الشخصية الضيقة ٠٠ وهذه أيضا لا تدق نفسها بالمسامير

في جدار الحـــوادث الكبـــار ٠٠ وليس في الرواية كلها صلات مفتعلة بين مصير الشخصيات وبين التيـــار العام للاحداث ٠٠ أن الحدث الخاص لا يمكن الصاقه بالحـدث العام بوساطة الصمغ أو المسامير !!.

وظهور المسامير والصمغ في أية قصـــة يدل على عجز كاتبها عن فهم التأثير المتبادل بين المصير العـام والمصير الخاص ، وهذا معناه عجز الكاتب عن التحليـــل الجدلى للتناقضات المتركبة ودفعها في تيار واحد ، ممـا يؤدى الىأن تصبح القصة كومة من الحوادث المتراكمة المفتعلة !

وهذا هو العيب الاساسى الان فى القصـــص المصرية « الثورية » التى تمس موضوع ٢٣ يوليو ، فتحـولة الى خطابة منبرية ، تختلط بحكايات غرامية ساذجة !

وقد خلت « السمان والخريف » من الخطابة تماما عند الحديث عن ٢٣ يوليو ، فمهمة القصصى ليست التصفيق ولا الوقوف على منابر المديح والصاق الحــوادث بالصمغ والدبابيس !

ويعطينا نجيب محفوظ فى قصته أكثر من مجرد نظـرة الى أحداث السنوات الماضية ٠٠ انه يعطينا تقريبا نظـــرة شاملة للحياة والكون ، والحدث العــابر يفتح الباب فى القصة لمناقشة الحياة والكون ، بلا حذلقـة ، ولكن بعمق هائل ٠

وأفكاره شعبية تماما ، فالافكار الشــعبية ليست هى الافكار العامية ، بل الافـــكار التى تخدم التقدم العــام للشعب ٠

ويرفع حواره مستوى الحديث المتبادل بين شخوص القصه ، الى أعلى نسق يمكن أن يدور عليه الحوار بين الناس ، ولكن بدون خروج على الواقع ٠٠ ان شيئا ما ٠٠ عميقا جدا يربط هذا الحوار الباهر بما يدور فعلا بين الناس من حوار ٠٠

ولا يمكن ان ينقل المرء في سطور قصيرة روعة السخرية في هذه القصة ٠٠ ان بلاغة السخرية تبلغ القمة على قلم نجيب محفوظ الذى يسمع همسات نفوس ابطاله ، ثم يشخصها في لوحات مرسومة بذكاء ٠٠ وذكاؤه يقفز من سطوره حتى يخيف القارىء (١)

---

(١) صدرت روايته « السمان والخريف » في اوائل الستينيات وأعقبتها الروايات التى نتحدث عنها في الصفحات التالية .

بيت فى أقاصيص
نجيب محفوظ

هذا البيت قصة ضمن مجموعة قصيرة ، كتبها نجيب محفوظ ونشرها فى عام ١٩٦٥ ·· سبقتها مجموعتان من قصصه القصيرة نشرتا فى عام ١٩٣٨ وعام ١٩٦٣ ·

و « بيت سيىء السمعة » اختير عنوانا للمجموعة ، لانه ـ فيما يبدو ـ يثير التطلع والفضول عند عامة القراء أكثر مما تثيره عناوين بقية هذه المجموعة الحافلة الجديرة بالتأمل ··

مشكلة اجتذاب القارىء الى الكتاب الجيد ، تطل من هذا العنوان ! ··

فحتى نجيب محفوظ ـ وقراؤه ومحبوه مئات الالوف ـ يحتاج ناشرو قصصه الى عنوان يجذب القارىء بأخيلة الجنس

ولكن الذين دفعوا خمسة وعشرين قرشا ـ ثمن الكتاب ـ ليشبعوا فضولهم ، بما وراء جدران البيت السيىء السمعة ، لم يجدوا شيئا ولم يسعفهم التليفون الذى اعتاد الفضوليون ان يشرحوا فيه فضولهم لسكان هذا البيت !

رسم نجيب محفوظ فى هذه القصة البديعة حياة بيت « طلائعى » من بيوت القاهرة فى العشرينيات كان سكانه يحملون بذور افكار جديدة للعلاقات الاجتماعية !

كانت ربة البيت ـ زوجة موظف كبير ـ اول امرأة فى الحى تمشى سافرة فى الطريق بلا برقع أسود أو أبيض ٠٠ وتصحب بناتها الجميلات الاربع سافرات مثلها ٠

« وكن يذهبن مرة فى الاسبوع ـ مع الزوج أو دونه ـ الى سينما كوزمو جراف ٠٠ وقد يسهرن فى مسرح من المسارح ، فلا يرجعن قبل الواحدة صباحا ٠٠ والادهى من ذلك كله أنه كان للاسرة يوم زيارة تستقبل فيه بعض الاسر بكامل هيئتها ، فيختلط الجنسان بلا حرج »

أذهلت هذه الحياة الغريبة سكان الحى الذين يتمسكون بالحجاب ، ويختلط فى أذهانهم معنى الشرف والفضيلة ، بكثافة الحجاب فوق وجه المرأة ، وابتعادها عن انظار الرجال ، لا تكلمهم ولا يكلمونها ، ولا تفكر فيهم ٠٠ مهما فكروا فيها !!

« وكان شبان الحى يسيرون جماعات تحت حجرة الاستقبال المتلألئة بالانوار ، يصغون الى الضحكات المتصاعدة ، وعزف البيان والغناء ، وكلما ظهر فى النافذة طربوش تبادلوا الغمزات والنكات وذهبوا فى التأويل كل مذهب ، وتخيلوا أعجب المواقف »

« لذلك كله لم يكن غريبا ان يذكر البيت مقرونا بلفظ ـ دعارة ـ دون مناقشة ٠٠ وكانت الاسرة على علم بآراء الجيران ومشاعرهم ، ولكنها لم تكترث لذلك أدنى اكتراث » !

هكذا يصف نجيب محفوظ أزمة البيت السيىء السمعة

كما كان يتصوره سكان القاهرة منذ أربعين عاما ٠

ولكن ماذا حدث بعد ان تغيرت الايام ، وتغيرت أفكار الناس ؟!

ان البيت السيىء السمعة قد صمد لافكار سنة ١٩٢٥ حتى أثبتت الحياة ان الذين اطلقوا عليه اسمه القديم ، كانوا أصحاب عقليات مغلوبة على أمرها ، قضى عليها التخلف ان ترى حسنا ما ليس بالحسن ، وتتوهم السوء والقبح والشر في كل شيء تعجز عن فهمه ٠٠

هذه القصة نموذج لسخرية نجيب محفوظ النابضة بالحيوية، ويستحقق عنوانها فعلا ان يكون عنوانا للمجموعة القصصية كلها ، لانه يلخص براعة السخرية وذكاءها ٠٠ فها هي ذي الحياة تدور وتدور ، حتى تقنع الناس ان هذا البيت لم يكن سيئا ٠٠ كان السيىء حقا هو المجتمع الذى يعاديه ويدينه !!

لا يمكن تلخيص هذه القصة ، مع أنها قصة قصيرة ، ولكنى لا أذكر فيما قرأت أبلغ منها تصويرا للصراع فى العشرينيات بين دعاة السفورة ودعاة الحجاب ، ثم انطفاء هذا الصراع ، واستسلام الجميع لكلمة التطور والتقدم

هذه القصة ذات اصالة متعددة الجوانب ٠٠

فهى قصة مصرية صحيحة النسب ، لا يمكن ان تنسب لغير المجتمع المصرى فى صراعه ضد بقايا عهود الجوارى والحريم ٠٠

وهى قصة لا يمكن ان تتفتق عنها الا قريحة نجيب محفوظ بالذات ، مكتوبة على هذا النحو ، مرسومة على هذه الصورة !

فهو لم يسرد قصة بطريقة الكليشيهات التى وقعت فيها القصة المصرية القصيرة ، وأخذ بهـــا أكثر كتاب القصة ، حتى الكبار منهم فى السنوات الاخيرة ٠

وانما رمى ـ كالسهام الخاطفة ـ صورا غير مترابطة ، ولكنها متلاحقة ، كأنها وحى العقل الباطن فى حلم سريع ٠

ولم يكد يرمى آخر سهم ، وآخر صورة ، حتى اكتملت القصة شكلا ومضمونا ٠٠ بينما يتخيلها ذو القراءة السريعة العابرة ، مجرد لمسات من هنا وهناك ، لم تكتمل بعد ٠٠

وهكذا استطاع بطريقة ، يمكن أن يقال انها تعبيرية ، أن يمتلك ناصية موضوع واقعى ، ويضعه أمامنا بـــكامل حيويته الواقعية ٠٠

ان بعض الآراء تأخذ على نجيب محفـــوظ انه كثيرا ما يلجأ الى العقل الباطن ينتزح منه عناصر قصصه القصيرة بالذات ٠٠

ويترتب على هذه الاراء ، ان نجيب محفوظ ، لا يعطى فى كثير من قصصه القصيرة مضمونا واقعيـــا ، أو مضمونا تقدميا ٠٠

هذه الاراء تبدو غير عادلة ، لمن يطـــالع قصص نجيب محفوظ القصيرة بتأن ومحاولة للفهم ٠

فان نجيب محفوظ ، يرى وراء كل ظاهر أمام الناس ، باطنا لا يرونه ٠٠ لهذا لا يقف عند ظواهر الاشـــياء ، بل يتتبعها الى اجحارها المظلمة ، وكهوفهـــا السرية ٠٠ وهذه هى قاعدته التى لا يستثنى منها احدا ولا يستثنى منهـــا شيئا

وهو فى ولعه بتطبيق هذه القاعدة ـ بحثا عن الحقيقـة

ـ يلج احيانا مكامن النفس البشرية ، بجرأة بالغة ، متفهما ما يجرى فيها وهى تكابد الشقاء ، أو تمارس السطوة وتسكر بخمر الانتصار

من خلال هذا العمل الفنى الشاق تبدو قصصه القصيرة كأنها لوحات للعقل الباطن تحفل بصور مبتسرة ، قد تكون غير مفهومة •• لانها لا تكتفى بعرض النفس البشرية فى ظروفها المختلفة ، بل تلقى دائما على الحياة والكون نظرة شاملة •• يخال من يطالعها أنها حشو غيبى يغرق الحدث ويخرجه عن الواقع !!

الحقيقة ان قراءة نجيب محفوظ ـ فى قصصه القصيرة ـ تتطلب جهدا ، أكثر مما تتطلبه قراءته فى رواياته الطويلة

وبهذا الجهد فى القراءة ، يمكن أن يأخذ القارىء من هذه القصص القصيرة متاعا فنيا • ويدرك الصلة الوثقى بينها وبين واقع الحياة !!

والمؤكد أن قصص نجيب محفوظ القصيرة ، أصبحت نهبا للتفسيرات المختلفة •

دعك مما يكتبه عنها بعض النقاد •• وخذ فيما يصنعه بها الفنيون الذين يحيلونها الى تمثيليات أو مسرحيات ••

بعضهم يلغى المضمون تماما ، ويغير معالم القصة كما فعل فايز حلاوة فى قصة « الخشوف » التى أخرج منها مسرحية لفرقة تحية كاريوكا عنوانها « قهوة التوتة » •

ان « الخوف » •• أحدى قصص هذه المجموعة ومن أعلاها شكلا ومضمونا ••

اما « قهوة التوتة » فهى المضمون المناقض لهذه القصة تماما •

وحدث تحويرا أيضا في مضمون قصة«سوق الكانتو» التى ظهرت فى تمثيلية ممتازة على شاشة التليفزيون ••
ان هذه التمثيلية ـ برغم جودة التمثيل والاخراج ـ لم تستطع أن تبرز المضمون النهائى للقصة •
فان نجيب محفوظ أراد بصراحة أن يقول ان اللص الصغير الفقير الذى سرق النقود ، لم يسرقها الا من لص آخر اقوى منه ، سرقها بدوره من لص ثالث ، أقوى من اللصين معا
ولم يقف نجيب محفوظ بالسرقة عند لص معين ، لانه يرى اللصوص سلسلة لا تنتهى ••
وهو يصور بهذه القصة تسلسل اللصوصية فى المجتمع الرأسمالى ••
أما التمثيلية ، فقد وقفت بحادث السرقة عند اللص الاول والثانى ، وجعلت من الثرى الامثل رجلا شريفا ردت اليه العدالة نقوده المسروقه !

هذا كله ليس مجرد عجز عن فهم قصص نجيب محفوظ القصيرة ، وانما هو تحوير متعمد ، سببه توهم بعض النقاد والمشتغلين بالفن ، ان نجيب محفوظ له عالم خاص ، لا ينبغى التقيد بتفاصيله •
وصحيح أن له عالما خاصا به ، ولكنه عالم رحب ، يسع جميع الناس ، ولا يعادى الواقع بل يلتزم به أكثر مما يلتزم كثير من الكتاب الواقعين ، ولكنه يتناوله من خلال رويته التى تضم جناحيها على الحياة والكون بمشكلاتهما

التى لا يمكن ان يجد لها حلا جاهزا فى كل قصة !!

ومن أجل أن يتمكن من التعبير عن رؤيته الشـاملة عن الانسان فى الحياة والكون ، لم يقف نجيب محفـوظ عند الاساليب المطروقة لفن القصة القصـيرة فى الادب العربى الحديث ، والاداب الاجنبية ·· بل ترك عبقـريته الفنية تخلق أسلوبا أو جملة أساليب لصياغة قصصه ··

ومن هنا كثر جرى النقاد وراءه ، يسألونه عن مذهبه الفنى ! ··

ولكن ·· لا نجيب محفوظ يسـتطيع ان يقول : ما هو مذهبه الفنى ، ولا أحد من النقاد يستطيع ان يقول

ان مذهبه الفنى هو هذا الخلق الدائم المتجدد ، يحيـل الحادث اليومى الى مسألة تتعلق بالحياة والكون كما تتعلق بأبسط مظاهر الحياة اليومية التى تتشـكل أمام عيون الناس ، ويمرون بها غير مبالين ··

نجيب محفوظ والشحاذ

الاستاذ عمر المحامى كان يريد ان يهدم العالم القـــديم الذى يعيش فيه مع ملايين الناس ، ثم يبنيه من جديد ..

لكنه فشل فى هدم العالم واعادة بنائه كما كان يشتهى ، فانهارت نفسه انهيارا ساحقا ، وتفكك عقله ، وأصبح كل ما فى داخله وما حوله منهارا .

انهدم عالمه الذاتى كله .. نفسه وعمله وحياته الخاصة ومثله العليا .. ثم انهار عقله بعد أن اختلطت عليه الامور ، والتبس الحلم بالواقع وقادته الحقائق النسبية الصغيرة الى محاولة يائسة فاشلة لمعرفة الحقيقة المطلقة التى يبدأ منها ، وينتهى اليها كل شىء فى الوجود !!

هذا هو بطل رواية « الشحاذ » كما قدمه الينـــا نجيب محفوظ .

ان الاستاذ عمر المحامى بطل « الشحاذ » .. يبدأ حياته مناضلا ثوريا مع اثنين من زملائه : مصطفى وعثمان ..

دخل عثمان السجن ، ولبث فيه عشرين عاما ، ومصطفى ترك النضال واحترف الكتابة الخفيفة المســـلية للاذاعة والتليفزيون .

أما عمر فقد نجا من حرفة الادب الخفيف ، ومن السجن• ونجح فى المحاماة وأصبح من أعلامها وأثريائها ••

ومضت به الحياة شوطها المعتـــــاد ، فتزوج وأنجب ، واكتهل وبدأ يتجمد ويمل الحياة ••

الا أن العالم الخارجى الذى فشـــــل فى هدمه واعادة بنائه ، لم يصمد للزمن ، لقد هـدمه أناس اخرون وبدأوا فعلا فى بنائه من جديد ، على أسس لا تختلف فى جوهرها عن الاسس التى أمن بهـا عمر فى صـــباه وآمن بها معه صديقاه الكاتب والسجين ••

ولكن الدنيا التى تهدمت من حول هذا المناضل القديم ، وأخذت تبنى نفسها على غرار أحلامه القـديمة ، لم تثر فيه حماسته ، ولم تخرجه من أطلال عالمه الذاتى المنهار ••

وعندما كان عمر فى صباه مناضلا يعمــل على بناء عالمه الذاتى وعالمه الخارجى ، لم يكن يقف محايدا بين الافـكار المتصارعة من حوله •

كان ممكنا ان يصبح فاشيا أو صوفيا أو عضوا في حزب اقطاعى ، ولكن ظروف حياته قادته في شبابه الى الاشتراكية فانضم فكريا وعمليا الى الشعب •

ولكنه لم يكن اشتراكيا خالصا •• كان مزيجا من ثورى ومن فوضوى فان المجتمع الفج الذى عاش فيه لم يتح له أن ينضج افكاره نضجا كافيا فانحـــرف الى تفجير القنـابل والاغتيال ودخل صديقه « عثمان » السجن بسبب قنبلة

ونجا عمر من السجن ، ولكن نجـــاته ، دفعت به الى اليأس من الكفاح وجدواه •• ولم يجد أمامه الا العمل وفقا للقانون ، ثم التكسب من القانون •

وفي سنوات الكفاح الاولى ، كان عمر ينظم الشعر الثورى •• كان عالمه الذاتى يزخر بالحيوية ويفيضها على عالمه الخارجي قصائد مشبوبة بالحماسة الثورية

كان التجاوب بين عالمه الذاتي وعالمه الخارجي خصبا ولودا ، برغم التناقض بين العالمين •• لان الشاعر الشاب كان يحلم بتغيير العالم الخارجي ، واقامة عالم جديد ، لا يشعر نحوه باحتقار ولا عداوة •• يبنيه بيديه مع ايدى الملايين ، ثم لا يثور عليه ، ولا يثير عليه الناس !

الا ان « عمر » الشاب الصغير الزاخر بالحماسة الثورية الرومانسية ، كان مفتقرا الى خطة علمية للثورة ، منعزلا ، يكاد يكون فوضويا •• فسرعان ما انطوى على ذاته ، ويئس من الثورة ••

وفجأة •• اندلعت الحوادث الكبار فى ٢٣ يوليو ، والعالم القديم بدأ ينهار •

والاحلام القديمة التى نظم فيها عمر أبلغ قصائده ، وأشدها حرارة ، بدأت تطل برأسها على الناس •• وأصبحت حديثا يردده ملايين الناس علنا ، لا فى زوايا بعيدة عن الانظار •

كان عمر خليقا أن يمضى فى حياته كمحام ناجح ثرى ، وزوج سعيد ، لولا هذه الاحلام القديمة التى أطلت عليه وعلى الناس فجأة ، بعد ان تبدلت أحواله كلها ، ولم يعد شابا صغيرا فقيرا ، هاربا من ركود الطبقة المتوسطة الصغرى ، بل أصبح رجلا كبيرا ينتمى بمصلحته وحياته ومصيره الى النظام الاجتماعى السابق الذى جعل منه نجما لامعا من نجومه !

لقد قطع التاريخ مرحلة كاملة ، وواجه الشـاب القديم الذى كان يتعجل سير التاريخ فماذا يقول الشاب القديم ، واين يقف من هذا التحول التاريخى ؟

هل ينتقل الى المعسكر المضاد ؟ .

ولم لا ؟ .. ألم تتغير شروط حياته القديمة التى جعلت منه فى الماضى مناضلا ثوريا ؟!

وهل يستطيع الان ، ان يهزم شروط حياته الجديدة ، وينكفىء الى ماضيه ، بأفكاره وأعماله ؟!

الحقيقه ان « عمر » لا يستطيع ان يقف فى المعسـكر المضاد ، لان وجدانه لم يتعفن. ولم يخيم عليه الظلام ..

الا انه — فى الوقت ذاته — غير قادر على عمل ايجـابى فى المرحلة التاريخية الجديدة

اقصى ما يملك من ايجابية هو ان يقول لنفسه أو لزوجته أو لصديقه مصـطفى : أليس هذا ما كنا نريده ونسـعى اليه ؟!

ولكن .. فى أى وقت جاء هذا الذى كانوا يسعون اليه ؟

الوقت مناسب للناس الذين طال بهم الانتظـار .. مناسب للتاريخ الذى دفع الناس عجلته بأيديهم فاندفعت !

ولكن عجلة التاريخ — وا أسفاه — دهمت مكتب الاستاذ عمر المحامى ، بينما هو غارق فى ملفات قضـايا المجتمع القديم !

انها مفاجأة طاحنة ، لا يسـتطيع ان يواجهها بجنـان ثابت ، ولا بعقل ثابت ..

ربما حاول ان يتماسك ، ولكنه وجد نفسه يتمزق تحت رحى المفاجأة الطاحنة ، ثم أخذ يتساقط ويتفتت !!

وعندما ذهب الى عيـــــادة الطبيب الـكبير يتشبث به ويسأله علاجا كان الوقت قد فات ·· لمفاجأة اســـتحالت أزمة عميقة الجذور ·· والتـــــاريخ كله يجثـم على صدر الأستاذ عمر ، فكيف يتنفس !؟

لم يكن الاستاذ عمر مريض الجسد .. كان مريض الروح والعقل ·

وعندما سأل طبيبه دواء لعلته كان يغالط نفسه ، فهـو يعرف الحقيقة التى لا يعرفها الطبيب ، وفى أعماقه يتمدد أخطبوط اليأس من الشــــفاء ·· وكل ما يجرى حوله فى الدنيا يصرخ فى وجهه : لا علاج !

لا علاج !؟ ··

ثمة علاج ·· ونجيب محفوظ يبدأ مع مريضه المسكين رحلة الشفاء

وكالعادة ·· يأخذ نجيب محفوظ بطل روايته الى قمـة عالية جدا ، يلقى من فوقها نظرة شــــاملة ، على المجتمع والكون !

فالحل عند نجيب محفوظ ، لا يمكن أن يتعلق بجزئيات فى المجتمع والكون

والكون والمجتمع معا ، يبهظان كاهل كل من يحاول ان يجد حلا لدى نجيب محفوظ

الفرديون والمغامرون والشحاذون وبائعات الهوى وقطاع الطرق ، يأخذ نجيب محفـــوظ بأيديهم الى ملكوت الكون الكبير ، ويعلمهم البحث عن خلاصهم وحقيقتهم من خـــلال البحث عن الحقيقة المطلقة ··

ومشكلاتهم الفردية الصغيرة تنثال من قلم نجيب محفوظ

لتملأ المجتمع كله ، ثم التاريخ كله ، ثم تتخطاهما الى الكون كله •

ولو بحث نجيب محفوظ عن مصير ابرة ، لبدأ البحث من أعلى قمة فوق الكون !

ان الحدث العابر الصغير الفردى يفتح الباب لمناقشة المتجمع والكون •

وهو يناقش قضية الكون والمجتمع ـ هذه القضية المتفجرة المدوية ـ بصوت هامس

وتحويل الدوى المروع الذى يهز قلب الكون والمجتمع الى سطور هامسة فوق الورق ، هو فن نجيب محفوظ •

وذلك بالضبط ما صنعه مع الاستاذ عمر المحامى الكبير الثرى الذى كان قبل ٢٣ يوليو ثائرا اشتراكيا ينتمى اجتماعيا الى الطبقة المتوسطة الصغيرة •• ثم ادركته « القرارات الاشتراكية » وقد اصبح برجوازيا كبيرا ، أو منتميا بمصالحه ومستقبله وحياته كلها الى البورجوازية الكبيرة ••

والاستاذ عمر يشبه فى ظروفه الاستاذ عيسى بطل نجيب محفوظ فى روايته « السمان والخريف »

كان عيسى من شباب الاحزاب التى انتهى دورها بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ •• فاجأته ففقد اتجاهه ، وانتهى امره الى الضياع الفكرى والاجتماعى

وبطل « السمان والخريف » نموذج لقطاع من الطبقة المتوسطة الصغيرة المصرية المثقفة ، لم تفهم معنى ما جرى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

فالمنتمى الى هذه الطبقة لا يقبض بيديه على فلسفة طبقية خاصة

انه ليس صاحب رأسمال ·· وليس صاحب اقطاع ، فليس له فلسفة الرأسمالية ولا فلسفة الاقطاع ·

ووراء البحث عن فلسفة اجتماعية وسياسية ، يجرى أحيانا الى أقصى اليسار ، أو يقبع فى الوسط ، أو يجمد فى أقصى اليمين

وكثيرا ما يصبح مجرد نهاز للفرص يركب أمواج الحركات السياسية الظافرة ·

وهكذا تأزم الاستاذ عيسى فى « السمان والخريف » وهكذا تأزم الاستاذ عمر فى « الشحاذ » ·

الفرق بينهما ان عيسى كان حزبيا ، أما عمر فكان اشتراكيا ·

وكما ضاع البورجوازى الصغير الحزبى ، ولم يهتد الى حل لازمته ، ضاع البورجوازى الصغير الذى اعتنق الاشتراكية قبل ٢٣ يوليو وانتمى بأفكاره وموقفه الاجتماعى الى جماهير الشعب !

والذى أضاع الاثنين هو جمودهما عند موقف فردى يتعلق بمصالحهما الخاصة التى فوجئت بالتغيرات العامة ·

فالاستاذ عيسى كان يعد نفسه لكرسى الوزارة ·· والاستاذ عمر كان قد بلغ من الجاه والكرامة فى المجتمع القديم مبلغ الوزارة أو اكثر ··

لقد دهمتهما كبريات الحوادث وقد اتخذ كل منهما وضعه النهائى حيال المجتمع ·· وعرف كل منهما أين يتجه به المستقبل ·

ولكن المستقبل نفسه اتخذ وضعا جديدا بالنسبة للمجتمع كله وانطوت الصفحات القديمة ، وقلبت كل الخطط والاحلام !

ان الاستاذ عيسى فى « السمان والخريف » يحلم بأن يجد حلا لازمته فى « انتخابات حرة » •• يتصور ان التاريخ يمكن ان يكر راجعا •

اما الاستاذ عمر فلا يحلم بانتخابات حرة •• انه يحلم بماضيه وينظر الى الاحداث الجسام من حوله نظرة مطرود من الجنة التى كان يبشر بها الناس !!

•• وتبدأ الرحلة الاخيرة للاستاذ عمر ••

ان الطبيب يقول له أنت بخير ، ولا شىء الا السمنة والافكار السوداء • والاستاذ عمر ، لا يرى مهربا من الافكار السوداء ، فهى الزاد الذى يشحن به عالمه الذاتى بعد ان أصبح فارغا من كل زاد ••

أصبح الاستاذ عمر يحملق فى الحياة فتنتابه قشعريرة باردة ، كأنه واقف على حافة بئر مظلمة مهجورة تسكنها الارواح الشريرة ••

وهو يطل فى بئر الحياة الصامتة المرعبة •• يلقى فيها بالاحجار فتقذف فى وجهه رذاذا حادا كأسنة الخناجر ، بينما هو متشبث بحاجز البئر ، مرتاعا من ظلامها ورذاذها ، وفى اعماقه رغبة جارفة تدعوه الى ازهاق نفسه فى المجهول المظلم الذى يقف على حافته !

أين المفر ؟!

ولماذا المفر ؟ •• أليس هذا ما كنت تريده وتبشر به

الناس •• أليس الذى تفر منه الى بئرك المهجورة المظلمة ، هو عالمك الذى بشرت به الناس •• ومن أجله دخل صديقك « عثمان » السجن عشرين عاما ؟!

بلى ! •• هذا ما كان عمر يبشر به الناس •• هذا ما دخل صديقه عثمان السجن من أجله •• هذا هو الحلم القديم •

ولكن الحلم القديم اصطدم بعمر جديد ، تغيرت شروط حياته •• تغير عالمه الذاتى القديم •• تغير كل شىء فيه الا ضميره الانسانى ••

وقد انتفض ضميره تحت وقع التحول التاريخى انتفاضة هائلة ، فاصطدم بواقع حياته الذى بناه ووطده فى ذروة المجتمع القديم !!

وكل ما فعله عمر بعد ذلك بحثا عن دواء ، لم يكن الا هروبا من ضميره القديم وكان هروبه الى الجنس والخمر والشعر هروبا من ضميره ، كان يتصور أن ضميره سيلهث وراءه زمنا ثم ييأس منه ويتركه هاربا مستريحا من عذابه المرير ••

ولكن ضميره لم يتركه •• عذبه ونكل به وطارده فى مكان وكل آن •• وأحاله فى النهـــاية الى شبه مجـذوب ينتظر معجزة من السماء تنقذه وترد اليه ما فات !!

ولكن لا معجزة تنقذه •• ولا حل يأخذ بيده ويبعده عن حافة البئر المظلمة ، الا ان يستجيب تماما لما يفرضـه عليه ضمير المناضل القديم •

الثورة تبنى العالم الجديد الذى يحلم به •• فلمـــاذا يتخلف عن الركب ؟ ••

ان تخلفه سيقوده فى النهاية الى صحراء جرداء يعيش فيها منعزلا عن العالم ، كأنه ذئب لا يملك فى مواجهة العالم الا المخالب والانياب ..

والتناقض القاتل لا يمكن النجاة منه بالامعان فيه ، لان النقيض هنا ليس رجلا ولا امرأة بل ملايين الناس وحركة التاريخ كلها !!

وقد كان نجيب محفوظ يستطيع ان يجد حلا سعيدا موفقا للاستاذ عمر ، كما يفعل كثير من مؤلفى الروايات ، ويعيده الى بيته آمنا مطمئنا ، ويضعه فى منصب لائق به فى المجتمع الجديد .

ولكن هذا هو الحل الخطابى .. الحل الدعائى البعيد عن الفن .. لان أزمة الاستاذ عمر المحامى أعمق بكثير .. أنها أزمة انسان انهدم من الداخل والخارج ، وسحقه ضميره ، وطحنته خيبته الشخصية وهو يرى النجاح الكبير يتم منعزلا عن ارادته التى خيل اليه فى شبابه ان مصير العالم كله يتعلق بها

ان نجيب محفوظ ـ الفنان الكبير ـ لم يعقد صلة مفتعلة بين مصير الاستاذ عمر وبين التيار العام للاحداث .

انه لم يلفق لقاء بين الحدث الخاص والحدث العام ، بل أخذ بيد بطله المسكين فى غمار المجتمع والتاريخ والكون كله ، وجعل من هذا المخلوق التعس محور كل الوجود ، وأقام من تعاسته قضية يبحث كل الوجود عن حل لها ..

ولكن نجيب محفوظ يطوى اخر صفحات « الشحاذ » بدون ان يجد حلا شخصيا للاستاذ عمر .

المجتمع يتقدم ، والتاريخ يمضى بلا هوادة ، وتنطوى

صفحات الاستاذ عمر ، فانه ـ مهما كان ـ لم يكن الا مخلوقا تعسا واحدا في عالم هائل تضج أرضه وسماؤه بمخلوقات لا حصر لها ذاقت التعاسة وتذوقها ، بين الازل والابد •

وفى مواجهة التعاسة يستطيع الانسان ان يتماسك ، ولكن ماذا يفعل اذا كانت تعاسته تنبع من أحلامه وكانت أزمته الطاحنة وليدة آماله ؟!

لا موعظة يمكن ـ في هذا الموقف ـ ان يسوقها فنان حقيقى الى بطل مأساة مثل الاستاذ عمر المحامى

كل ما يستطيعه الفنان الحقيقى فى هذا الموقف ان يحنو على هذا الانسان الذى ارتطم بالحياة والمجتمع والكون ••

وبعد ذلك فالحياة والمجتمع والكون لا تتوقف ، والتاريخ يمضى فيضع الجديد مكان القديم ، ولا يربت على كتف انسان يفاجئه الجديد ، فيقف باكيا على اطلال القديم !

نجيب محفوظ فوق النيل

هذا العالم العجيب الكئيب الملىء بالصراحة والعفـــونة واليأس والأمل البعيد ، يثرثر أصحابه بشراهة عن الحياة والمجتمع والكون ·· دعنى أقدمه اليك ··

أقدم اليك أبطال نجيب محفـــوظ فى روايته العجيبة « ثرثرة فوق النيل » :

ـ آنسة سناء الرشيدى ·· طالبة بكلية الاداب ·· لها تجارب مع الفنانين ·· اخرهم الفنان اللامع رجب القاضى نجم السينما المشهور بغزواته النسائية

ـ سنية كامل ·· من بنات الميردى دييه ·· زوجة وأم وسيدة مجربة ·· كنز من الخبرة للفتيـــات الصغيرات اللاتى يطرقن لاول مرة عالم الرجال

ـ « آنسة » ليلى زيدان ·· خريجة الجامعة الامريكية · مترجمة تجيد اللغات الاجنبية .. جميلة مثقفة ذات شعر ذهبى حقيقى لا زيف فيه ولا صباغة

ـ انيس زكى ·· موظف صـــغير بوزارة الصحة ·· مثقف ·· طاف بكليات الطب والعلوم والحقـوق ، فمضى بعلومها دون شهاداتها كأى رجل لا تهمه المظـــاهر ··

يعيش وحيدا ويهيم فى الملكوت ، وحياته ممتدة فى الماضى والحاضر والمستقبل

ـ احمد نصر ٠٠ مدير حسابات ٠٠ له ابنة صغيرة فى سن الانسة سناء الرشيدى طالبـة الاداب ٠٠ ولكنه زوج لا مثيل له ، فمنـــذ عشرين عاما لم يخن زوجته ولو مرة واحدة !

ـ مصطفى راشد ٠٠ محام معروف وفيلســوف أيضا ، متزوج بمفتشة فى وزارة التربية والتعليم ٠٠ يتطلع فى فلسفته الى الحقيقة المطلقة ، ولكنه يبحث كذلك عن نموذجه المفضل فى النساء ٠٠

ـ السيد على السيد ٠٠ ناقد فنى معـــروف ٠٠ يحلم بمدينة فاضلة خيـــالية ٠٠ اما عن واقعه فهو متزوج من اثنتين ، وصديق للسيدة سنية كامل الســالفة الذكر ٠٠ ويتطلع الى صداقات أخرى ٠٠

ـ خالد عزوز ٠٠ كاتب قصة قصيرة ممتــاز ٠٠ يملك عمارة وفيللا وله ولد وبنت ٠٠ فلسفته الخاصة تجنح الى الاباحية ٠

ـ « عم عبده » ٠٠ حارس العوامة وبوابها وخادمها ٠٠ يشترى « الصنف » للساهرين والساهرات فى العوامة ٠٠ يقود الى العوامة نوعا معينا من النساء ٠٠ يؤدى الصلوات بانتظام ، ويؤذن لصلاة الفجر بلا انقطاع ٠٠

ـ سمارة ٠٠ ليسانس من قسم اللغة الانجليزية بكلية الاداب ٠٠ صحفية وكاتبة جادة ٠٠ وضيف على « الصنف »

ـ وأخيرا ، وليس اخرا ٠٠ الاستاذ رجب القاضى ممثل السينما اللامع وساحر النساء ٠٠

هؤلاء جميعا يمكن اجتماعهم في رواية أو قصة قصيرة أو مسرحية أو أي عمل فني ، متخذين هذه الاسماء نفسها ، وهذه الصفات ذاتها ٠٠ ولكن مصائرهم في « ثرثرة فوق النيل » لا يمكن ان تخطر على قلب كاتب او فنان الا اذا كان من طراز نجيب محفوظ ٠٠ اعنى الا اذا كان هذا الكاتب الفنان هو نجيب محفوظ !

هؤلاء الناس افراد من الطبقة المتوسطة الصغيرة في بلادنا ٠٠ تختلف أوضاعهم في سلالم الطبقة ، ولكنهم جميعا ينتمون اليها بأصولهم المادية والنفسية والعقلية ٠

ولا تدرى كيف أصبحت عوامة « عم عبده » الذى ينتمى وحده الى طبقة الفلاحين ، منتدى ليليا لهؤلاء الرجال والسيدات والانسات ٠

ان « عم عبده » لا يملك العوامة طبعا ، فهو حارسها فقط ٠٠ وهو الوسيط بين نساء الشارع ورجال العوامة ٠ انه الصلة بين البورجوازيين الصغار المنعزلين في العوامة ، وبين الشارع الذى يضطرب بمتناقضات الناس في الحياة الصاخبة التى يتجاهلها أهل العوامة

« عم عبده » هو « خادم السادة » ٠٠ يمثل القوة التى تمسك العوامة ان تميد بمن يثقلونها كل ليلة من الوافدين ٠٠ انه « الحبال والقناطيس والزرع والطعام » ٠ يجلب النساء الى رجال العوامة ثم ينتحى جانبا ويؤدى الصلاة !

والعوامة تظل هامدة طوال النهار ٠٠ ثم تهتز بالوافدين عليها منذ بداية الغروب الى بداية الصباح التالى ٠٠

وخلال اثنتى عشرة ساعة كل ليلة يتلاقى ابطال العوامة وبطلاتها ، وتدور عليهم وعليهن « الجوزة » وينغمسون فى المناقشات فتمتزج كلماتهم بأنفـــــاس الجوزة المنبعثة من احتراق « الصنف » !
وخارج العوامة يتكلم الظلام ، فينحدر صوته مع شـــعاع نجم كابى الاحمرار قطع المســـافة الى « الغرزة » فى مائة مليون سنة ضوئية ••

وهم جميعا يســـبحون فى الملكوت •• ويرون هذا من حقهم ما داموا ــ خلال النهار ــ يعملون من أجل الرزق
ولعلك لو رأيتهم قلت : « انهم مصريون •• انهم عرب • انهم بشر •• انهم مثقفون ، فلا يمـكن ان يكون هناك حد لهمومهم » ••

وهم يردون عليك : « الحق اننا لا مصريون ولا عرب ولا بشر •• نحن لا ننتمى لشىء الا هذه العوامة » !

« وما دامت الفناطيس بحالة جيدة والحبال والسلاسل متينة ، وعم عبده ساهرا ، والجوزة عامرة ، فلا هم لنا »
ولماذا يتعبون انفسهم بالمشاركة فى الحياة خارج العوامة وهم يرون ان « الســـــفينة تجرى دون حاجة الى رأينا او معاونتنا •• وان التفكير بعد ذلك لن يجدى شيئا ، وربما جر وراءه الكدر وضغط الدم » •
وعم عبده واقف بالباب ، وبعضهم يقول له :
ــ عليك ان تبحث لى عن فتاة مناسبة فى الظلام
ــ الليل تأخر وليس فى الطريق شىء
ــ تحرك أيها البنيان
ــ قد توضأت لصلاة الفجر

ـ أتطمع فى خلود أخلد مما أنت فيه ؟ •• تحرك !
وتمضي الليالى بأهل العوامة •• الظلام يتـــكلم خارج العوامة •• والجوزة تدور داخلها •• وعم عبده بالبـــاب يجتلب النساء أو يتوضأ للصلاة ••

« الجنون مرض فى أى مكان ولكنه فلسفة فى عوامتنا • والشيء شيء حيثما كان ، ولكنه لا شيء فى عوامتنا •• أيها الحكيم القديم اقدم بعصرك الذى اضمحل فيه كل شيء الا الشعر وأسمعنا الغناء •• حـدثنى ماذا قلت لفرعون ••
أقبل الحكيم وهو ينشد :

ان ندماءك قد كذبوا عليك
هذه سنوات حرب وبلاء

قلت :

ـ اسمعنى مزيدا أيها الحكيم

ما هذا الذى حدث فى مصر

فأنشد :

ان النيل لا يزال يأتي بفيضانه ان من كان لا يمتـلك أضحى ••
الان من الاثرياء
يا ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت ••
لديك الحكمة والبصيرة والعدالة
ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد
انظر كيف تمتهن أوامرك
وهل لك ان تأمر حتى ••
يأتيك من يحدثك بالحقيقة !

ان « أنيس زكي » البطل الحقيقى لثرثرة النيل ، يعيش التاريخ الانسانى كله ••

يعيش الفساد فى عصر فرعون ، كمـــا يعيش الاحلام العريضة فى عصر الفضاء ••

حياته فى العوامة ، وخارجها ، تمتد فى التـــاريخ طولا وعرضا ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا

يعيش بلا عقيـدة من أى لون •• يقضى وقته فى العبث لينسى انه ســـيتحول الى رمان عظام •• وبرادة حـديد وازوت ونيتروجين وماء •• بعد عمر طويل ، أو قصير •

« وفى غيبوبة الدوار تختفى جميع الاشياء الثمينـة •• من بين هذه الاشياء الطب والعلم والقانون » •• وكل شىء عنده ككل شىء

ان الدنيا تثقله بالمتاعب ••

واصل المتاعب مهـــارة قرد كان يعيش فى الغابة قبل مليون سنة ، فقد تعـــلم هذا القـــرد « كيف يسير على قدمين ، فحرر يديه ، وهبط من جنة القرود فوق الاشجار الى أرض الغابة •• وقالوا له : عد الى الاشجار والا أطبقت عليك الوحوش ، فقبض على غصن شـجرة بيد وعلى حجر بيد وتقدم فى حذر وهو يمد بصره الى طريق لا نهاية له » •

وهكذا تمضى هذه الثرثرة الرائعة فوق النيل ••

لا « حدوتة » فى هذه الرواية •• كل ما فيها أن الدنيـا تسير بأهل العوامة ، وحياتهم تنمو فوق ماء النيل •

وعسير على القارىء ان يتصور ان مجمـــوعة من البشر كهذه يمكن ان تنمو حياتها حتى تملأ مائتى صفحة ، الا على يد نجيب محفوظ الذى احال الثرثرة الى حياة •• والتقط من الحياة خيط الثرثرة فاطاله الى أبعد مدى مستطاع ••

ليس معنى هذا ان نجيب محفوظ قد اثقل كاهل الحادثة الصغيرة بمعالجة روائية ، فالحـــق ان عبقريته قد أمدت الحادثة الصغيرة بقوة خارقة تحملت كل شيء ..

فالعوامة المنعزلة في النيل برجالها ونسائها ودخانها ، صمدت لكل الاثقال التي القاها فوقها نجيب محفـوظ .. فلم تغرق ! ..

القى عليها الفلسفة والتاريخ الانساني من أوله الى اخر يوم يعيشه الناس في عصر الفضاء الان .

ولم يكتنف هذه المرة بالقـــــاء نظرة على المجتمع والكون تسبح في نسيج الرواية كله ، كمـــــا فعـــل في رواياته السابقة ، بل افضى الى ختم الزمان والكون والمجتمع ففضه وسكبه كله في عوامة الاستاذ أنيس زكي وعم عبده ورفاق الصنف والظلام .

ومن هنا لا يمكن ان يقال ان نجيب محفـــوظ اراد في ثرثرته فوق النيل ان ينتزع شريحة عريضــــة من حياة المثقفين المصريين أو الطبقة المتوسطة الصغيرة المصرية بوجه عام ..

فالحقيقة انه انتزع روايته من حياة انسان عصر الفضاء كله ، في مجتمعاته المختلفة .. فالمصير واحد لكل النـاس .. وجميع أعمالهم تتلاشى في الاخفاق النهائي

وهكذا وضعت الفلســـــفة الوجودية نفسها في خدمة رواية نجيب محفوظ .. فالاحساس الفلسفي العميق لكل الثرثرة التي شهدتها العوامة ، هو الاخفاق وتساوى مصير الاعمال ..

ليس معنى هذا أن نجيب محفوظ قد ساق أبطال روايته الى الاخفاق

فالحقيقة أنه تابعهم في نمو حياتهم وصيرورتهم وكأنه يعلن عجزه عن حمايتهم من المصير ..

صحيح أن أمرهم بيده ، ولكنه لم يرسم مصيرهم على أساس الجبرية ، بل تركهم مخيرين وسار معهم !

وقد اختارت لهم دنياهم هذا المال .. فسار نجيب محفوظ معهم يشيعهم اليه ولا يستطيع ان يمد يده ليمنع وقوع شيء !

فهو في هذه الثرثرة الرائعة ، راوية مصير ، لا خالق مصير متجبر يحكم بما يشاء ..

والوجودية لم تضع نفسها في خدمته ، بل في خدمة أبطال روايته .. وهي لم تقنعه ، بل أقنعتهم .

وماذا يفعل الكاتب اذا وقعت في يده أحدى المشكلات القاهرة ؟

لقد وقعت مشكلة أهل العوامة في يد نجيب محفوظ ، فلم يستطع ان يقول : هذا هو حلها .. لأنه يكتب فنا ولا يصدر فتاوي ! ..

نجيب محفوظ فى السينما

عندما أشاهد أفلام السينما المأخوذة من روايات نجيب محفوظ ، أتأمل بدهشة عجز فنون السينما مجتمعة عن مجاراة فن الكتابة بمفرده فى عمق التعبير وامتداده داخل النفس البشرية والمجتمع والكون •

وكثيرا ما أجد السينما بفنونها الجبارة قاصرة عن تصوير الحياة والكون كما تصورهما الكتابة •

الا أن السينما كثيرا ما وقفت بتعبيرها على قدم المساواة مع تعبير الروائيين والقصصيين الممتازين ، وكثيرا مابعثت السينما حياة قوية فى كتابات فقيرة الى نبض الحياة ، ولفقت فنا لكتابات عاطلة من الفن !

أما روايات نجيب محفوظ ، فان السينمائيين يبذلون فى اعدادها للسينما كل جهد ، ثم لا يتاح لهم ان ينقلوا من تعبيرها الفنى الى شاشة السينما الا ماتيسر ؛ كأنهم يقفون منها على بحر لا ساحل له ! ••

والحق ان السينمائيين يؤدون واجبهم فى كل مرة ، ويجتهدون غاية الاجتهاد ، ولكن •• كيف يمكن للسينما أن تنقل الى أسلوبها فى التعبير فيضا من التعبير والتصوير فى كل صفحة يكتبها نجيب محفوظ ؟!

وقد كان هذا موقف السينمائيين فى كل فيلم اخذوه من روايات نجيب محفوظ ..

صحيح أن فيلم « بداية ونهاية » وفيلم « القاهرة ٣٠ » قد أمسكا بالخيوط الرئيسية فى الروايتين كما كتبهما نجيب محفوظ .. ولكن الفيلمين ـ على جمالهما ودقة نسجهما ـ ظلا صورة مصغرة من العالم الكبير الذى رسمه نجيب محفوظ فى « بداية ونهاية » و « القاهرة الجديدة »

ثم جاء فيلم « السمان والخريف » ليؤكد مرة أخرى أن السينما تقف من كتابات نجيب محفوظ على بحر لا ساحل له ، ولا يمكن اغتراف أمواجه بأضخم أناء فنى فى العالم !

وفيلم « السمان والخريف » جميل حقا .. أمين فى الاخذ من النص .. ذكى صبور عاشق لما يأخذ من النص .. ولكن الذى قرا رواية « السمان والخريف » واستفزه الطرب والوجد مع كل صفحة من صفحاتها .. يفتقد فى الفيلم هذا الطرب وهذا الوجد الفنى فلا يجد منهما الا لمحات متفرقة ..

لقد صور محمود مرسى بطل القصة « عيسى الدباغ » بكل اقتدار واخلاص واقناع ، وصورت نادية لطفى « ريرى » بطلة القصة بأبعادها الانسانية، وظلالها ومأساتها ونهوضها من كبوتها .. وهذان البطلان البديعان ، محمود مرسى ونادية لطفى ، هما خير ما فى الفيلم .. وأقرب الشخصيات الى ما كتبه نجيب محفوظ !

وفيما عداهما لم يستطع الفيلم أن ينقل من صفحات الرواية الا صورا عامة ، ولقطات خطابية يبرأ منها النص ، فان النص لا يعقد صلات مفتعلة أو مبهمة بين مصير

الشخصيات وبين التيار العام لكبريات الحوادث ·· أما الفيلم فانه اضطر أن يعلق بعض الاحداث الخاصة على « شماعة » الاحداث العامة ، بدون تعليل يقنع الناس بالتأثير المتبادل بين المصير الشخصى والمصير الاجتماعى العام ··

وحسبك نموذجا لهذا كله شخصية « حسن » ابن عم عيسى الدباغ ·· فهى شخصية خطابية معلقة على مشجب الأحداث العامة ·· لا تدرى أهو ثورى وطنى أم انتهازى أزرق الناب ، أم مجرد شبح يلوح فى دخان الاحداث ! ··

بقيت « السخرية » كعنصر أساسى من عناصر كتابة نجيب محفوظ

ان نجيب محفوظ هو صاحب أبرع سخرية بين كتاب عصرنا ، فماذا صنع الفيلم فى هذا الجانب الهام من فن نجيب محفوظ ؟

الحقيقة أن احمد عباس صالح الذى أعد الرواية للسينما بذل جهدا ضخما لنقل سمات فن نجيب محفوظ الى الشاشة ، ولم يفته ــ وهو الخبير بفن نجيب محفوظ ــ أن يحاول نقل لمحات من سخريته ·· واختار الموقف الساخر الذى يطالب فيه عيسى الدباغ بانتخابات حرة

ولكن أين ما يطالعه المتفرج على الشاشة مما يطالعه فى الكتاب ؟!

نجيب محفوظ
مع عصبة ميرامار

« ميرامار » •• رواية نجيب محفوظ •• هل تستطيع السينما المصرية اخراجها ؟!

ان رواية « خان الخليلى » التى تمثلت فيها روعة الرومانسية عند نجيب محفوظ قبل عشرين عاما ، لم تحقق نجاحا كبيرا فى السينما المصرية ولم تحقق نجاحا يذكر فى المهرجانات الدولية ••

لماذا ؟! ••

لان السينما المصرية ـ كما فعلت فى بعض روايات نجيب محفوظ ـ أفرغت « خان الخليلى » من محتواها واحالتها الى مغامرة غرامية ميلودرامية تثير جمهور الدرجة الثالثة •• ان صح هذا التعبير ! ••

لقد جار عليها التسطيح السينمائى فأخفى بناءها الفوقى، وهو فى الحقيقة جوهرها وروحها الفلسفى والاجتماعى والشعرى والصوفى ••

وقد كتب نجيب محفوظ شخصيات « خان الخليلى » مثقلة بالمعانى ، ولكن هذه الشخصيات المرهفة البديعة التى أرقتنا عند قراءتها ليالى طويلة ، ظهرت على شاشة السينما كما تظهر الشخصيات السينمائية التقليدية التى فرضها بعض المخرجين المصريين على ذوق الجمهور •

ان شـــــخصيات « خان الخليلى » كمـــا كتبها نجيب محفوظ ٠٠ تختلف عن شخصيات الفيلم اختـلاف أناس لا يعرف بعضهم بعضا ، وقد تدلت هذه الشــــخصيات من جوها الرفيع الى الجو العامى الراكد الذى تختنق فيه معظم الافلام المصرية

وقد أفلتت روايتان أو ثلاث لنجيب محفـــوظ من هذا المصير ، وكان ممــــكنا أن تفلت منه جميع رواياته ، لو قيضت لها الاقدار شروطا فنية صحيحة عند نقلها من كلام مكتوب الى صور متحركة

ترى ماذا يحدث لرواية « ميرامار » ٠٠ أحدث روايات نجيب محفوظ ، اذا أتيح لها أن تظهر فى السينما ؟!

أكبر الظن أن ستتحول الى جريمة قتل ومطاردة عنيفـة تشنها الشرطة على القاتل الاثيم ، حتى تظفر به وتسلمه الى يد العدالة الساهرة على حماية الارواح ! ٠٠

ولكن ميرامار ، بالرغم من وجود جريمة قتـــل فيها ، ليست رواية دماء وشرطة وسفاح أثيم هارب من العدالة ، وانما هى محاولة بالغة الجـدة والذكاء والرقة للبحث عن الحقيقة فى ضوء الاحداث وفى ظلمات الاحداث كذلك

والبحث عن الحقيقة بين القـــاتل والمقتـول فى رواية « ميرامار » يرهق وجدان نجيب محفوظ وذكاءه وسخريته وحبه للخير والجمال والمثل الاعلى

فالحقيقة ليست نصبا تذكاريا ثابتا من الازل الى الابد تمام عيون الناس ، وانما هى حالة المجتمع والانسان والكون فى صيرورتها الدائمة ، وتغيراتها الابدية ٠٠

وفى كل عصر يرى الانسان وجها للحقيقة كان يحجبه غبار الحقيقة ذاتها ، فان الحقيقة كائن حى يتحرك ويعدو ويثير الغبار خلفه ، وكثيرا ما يضيع البـــــاحث عنها فى غبارها « ·· كما ضاع أبو علي فى غبار ناقة الحقيقة » ·· على حد تعبير شاعر فارسى قديم !

وميرامار ·· محـــــاولة للبحث عن الحقيقة عند أناس مختلفين ، بل متقاتلين ·· ومحاولة لجعل الحقيقة « حكما » بينهم يمسك بيديه ميزان العدالة ، حتى لا يقتـــل بعضهم بعضا ·· ولكن غبار الحقيقة يعمى أحدهم فيحاول القتل ، ويعمى آخر فيقترف القتل فعلا

ونجيب محفــــوظ فى « ميـــــرامار » قوة خفية وراء شخصياتها : عامر وجدى الصحفى المتقــــاعد الطاعن فى السن ·· وطلبة مرزوق الاقطـــاعي السابق المتصـــابى الحاقد ·· وسرحان البحيرى الشاب الانتهــــازى وكيل حسابات احدى الشركات ·· وحسنى علام سليـــــل أعيان الريف الذى يحاول أن يخلع ثيابه الاقطاعية ليرتدى ثياب « الرأسمالية الوطنية » ·· ومنصور باهى المذيع الصغير الذى تخبط فى الافكار الجديدة وسلك طريقا لا تهديه فيه خفقة من النور ·· ثم « زهرة » الشابة الفلاحة الجميلة التى هجرت القرية وأصبحت خادما فى « ميرامار » ·· وبقيـــة الشخصيات

ونجيب محفــــوظ فى ميرامار ـ كما فى رواياته التى سبقتها ـ لا يستبد بخلق شخصياته .. بل يشركها فى خلق نفسها ، فهى تتحرك وتصنع مصيرها بيدها ، وأبطاله يولدون احرارا ، ولهم أن يتحركوا فى الحياة ويختاروا ، ويكابدوا الشقاء ، ويخلصوا أنفســـهم منه ، فليس عند

نجيب محفوظ حل موفق سعيد لمشـــكلاتهم ، ولا موعظة حسنة يقدمها اليهم فى أزماتهم ٠

والحل عنده فى « ميرامار » كالحل فى رواياته كلهـا ، ينطلق من جزئيات المجتمع المعاصر والانسان الحى ، ليعم التاريخ بمجتمعاته البائدة ٠٠ والمستقبل أيضا بمجتمعاته التى لا نعرف عنها الا كلمات نظرية .. بل يعم الكون كله بأرضه وسمائه وفضائه ! ٠٠

وباب المناقشة يتسع للحدث الفردى الصغير ، ويظـل يتسع ويتسع حتى يدخـــل منه المجتمع والتاريخ والكون اللانهائى

وخلال هذا العمل الفنى المدهش ببساطته وتعقيده معا ، تنمو الحياة فى الرواية نمـــوا طبيعيا حتى يلتحم مصير الانسان الفرد بمصير كبريات الحوادث ، بلا افتعال ٠

صـــــحيح ان لغة نجيب محفــــوظ توحد بين جميع الشخصيات فى نطقهم كأنهم من أب واحد وأم واحدة وطراز واحد فى أوضاعهم حيال المجتمع والكون ، ولكن شـــيئا دقيقا خفيا فى فن نجيب محفوظ يجعـــل اللغة الواحـدة تختلف مبنى ومعنى من لسان الى لسان ، وتقيم الفارق بين انسان وانسان ٠

وفى كل ليلة يجتمع هذا الحشد من الشخصيات المتنافرة المتأزمة فى بنسيون « ميرامار » ٠٠ على شاطىء الاسكندرية، وتحت سماء شتائها ، كأنهم أسرة واحدة ٠

وكل منهم فى عزلته النفسية ، يتصـــل عفويا بجاره وزميله فى البنسيون ، فتنفتح فى جدار غرفته فرجة ضيقة يرى منها جزءا من الحقيقة

والحقيقة عنده تتعلق بالكون والمجتمع ، كما تتعلق بما يجرى داخل البنسيون ، أو على أبوابه ، أو فى الشارع الذى يطل عليه ·

وتتجمع أجزاء صغيرة من الحقيقة أمام عيون نزلاء البنسيون فترتسم لهم صورة عجيبة مدهشة لعلاقة غرام نشأت فى الخفاء بين « سرحان البحيرى » و « زهرة » ·· خادمة البنسيون التى كانت تتطلع الى حب يفضى الى زواج ، وتتمنع على اللهو العابر ·

وفي ميرامار كانت زهرة تطالع النزلاء ·· « بفطرتها الخشنة الفظة الرهيبة ، بصمودها الصلب المغطى بالاشواك ، بآمالها الجنينة فى قوقعة مسمومة الاطراف ، بروحها الابدية التى تجذب اليها المغامرين واليائسين ، فتقدم لكل غذاءه »

وقد قدمت غذاء عاطفيا طيبا الى الانتهازى سرحان البحيرى ، بعد أن قال لها : « طوبى للارض التى غذت وجنتيك ونهديك » ! ·· وأوشك أن يجن عندما رآها لاول مرة تشترى شيئا من دكان بقال رومى ·· « ونفذت عيناه الى وجهها من فرجة بين زجاجات الويسكى وزجاجات الكونياك ، وهواء الخريف بلفحه بدسامته الجنسية »

وتصورت زهرة أن سرحان البحيرى يحبها وأنه سيتزوجها ، ولكنه هجرها بلا مبالاة بعد خلوات الغزل والقبل وأحضان الاشتهاء المكبوت ·

كانت حياته الانتهازية تحفر مجراها فى الظلام والفراغ، وكان يحاول أن يكسب من جميع الظروف على اختلافها ·· المد والجزر فى البحر ·· كلاهما باب الى الكسب الوفير، والابله من لا يعرف كيف يربح عند التقدم وعند النكوص

وكانت « الاشتراكية » كلمة طيعة على لسانه فى كل وقت ، تخدم كل معنى يريد أن يصبه فى الاسماع ، ولكن قلبه لم يكن يعرف عنها شـــيئا ، وحقيبته متخمة بأموال الشركة المنهوبة ·· وعندما اكتشفوا أمره لم يكن لديه حل الا القتل ! ·· ففى هذه المرة لم يكن يستطيع أن يربح

وكانت جريمة القتل التى سيرتكبها تثقله بالتعاسة ، لانه لن يقتل أحدا ·· سيقتل نفسه فقط !

ولما علم نزلاء البنسيون أن سرحان البحيرى مات مقتولا، تساءلوا : من الذى قتله ؟ ·· ولماذا ؟!

وقال لهم منصور باهى وهو يتخبط فى الافــكار التى خولط بها عقله : أنا ·· ضربته بحذائى حتى فقد النطـق ومات ! ··

ولم يصـــــدقوه ·· مع أنهم جميعـا كانوا يودون فى سرائرهم أن يقتلوا سرحان البحيـــرى بأحذيتهم ·· على الاقل لانه استأثر دونهم بزهرة بعض الوقت ! ··

وعندما قال الطبيب ان سرحان البحيرى قتـل نفسه ، وقطع شريان يده بيده ، أدرك منصـــــور باهى أنه ضرب غريمه وهو ميت !

ترى ما هذا الذى حدث لعصبة ميرامار ؟!

من الذى نجا من ساكنى ميرامار ·· ومن الذى اختـل توازنه فوق الصراط المستقيم فوقع فى الجحيم ؟!

لقد أحب الجميع « زهرة » ·· أو اشتهوها ·· وتصرفوا حيالها دائما كأنها « رمز » يتسربل بالهيبة ، ولكنه يشـ- بالفتنة والاغراء ··

وقد مات الانتهازى ·· فماذا عن الاخرين فى ميرامار

هل تضيع « زهرة » الجميلة المحبوبة مثلما ضاع « بو على » فى غبار ناقة الحقيقة .. كما قال الشاعر الفارسى القديم ؟!

وبعد .. فهل تستطيع السينما المصرية اخراج هذه الرواية ؟!

هل يستطيع مخرج أن ينقل خطوطها العريضة من الورق الى الشاشة ؟!

اننى أرجو لميرامار حظا أحسن من حظ خان الخليلى (١)

---

(١) اخرجت ميرامار فى السينما والتليفزيون ، وكان نجاحها فى التليفزيون أكبر من نجاحها فى السينما ، لان « الحلقات » التليفزيونية الكثيرة اتسعت لما لم يتسع له فيلم السينما الواحد .

نجيب محفوظ فى
خمارة القط الاسود

اعتمد على نفسك وابحث عن خمارة القط الاسود فى المجموعة الجديدة من قصص نجيب محفوظ ، فليس للمجموعة فهرس يهديك الى موضع قصة الخمارة بين ثلاثمائة صفحة تقريبا ، تضم بضع عشرة قصة قصيرة متنوعة الاشكال والالوان ..

« خمارة القط الاسود » فى منتصف المجموعة تقريبا .. ستبدأ بها مطالعة المجموعة لانها عنوان لها جميعا .. والحقيقة انها تستحق هذه الصدارة على غلاف المجموعة، كما تستحق أن تتربع فى وسطها ، تحف بها أخواتها القصص القصيرة عن يمين وعن شمال ..

والشاربون فى خمارة القط الاسود كانوا سعداء فى ضباب الكئوس .. لا وعى ، لا هموم .. ولكن رجلا تراءى لهم فى ضبابهم عند باب الخمارة .. « كالحجر الصلد ، لا يتأثر ولا ينفعل ولا تنبسط له اسارير .. أى رجل هذا ؟! .. » ..

« أشار اليهم بحزم صارم : لن يغادر المكان احد » .. وطيلة السهرة اذعنوا لهذه الاشارة الصارمة ، وانتظروا خائفين وعيونهم عليه وهو يسد الباب بجسمه الهائل .. .. و « جاءت الاكواب الجهنمية .. أفرطوا فى الشراب،

دارت الرءوس ، انزاحت الهموم بسحر ساحر ، رقصوا فوق مقاعدهم ، غنوا معا : عيد الانس هلت بشايره » !

خضع الشاربون للرجل الرابض على الباب ساعة من الليل لا يعرفون مداها ، فى غيبة وعيهم وارادتهم ، كأنهم خاضعون للقضاء والقدر ، وكان ثمة غناء أو بكاء ، ولكن ما الحكاية ؟! ..

فى « لحظة التنوير » .. ان صح هنا هذا التعبير ، انتهت ليلة الشاربين بلا تنوير .. كانت جميع لحظات القصة عندهم ظلاما فى ظلام ، فالرجل الصلد المغير عليهم واقف على باب الخمارة ، ولا أحد من الشاربين المحملقين فى الباب يدرى من هذا الرجل الصلد الذى أغار عليهم فجأة ، ومنعهم ان يعودوا الى بيوتهم ! ..

لم يفهم الشاربون شيئا مما لاح لهم فى لحظة التنوير ، عندما ارتفع صوت الجرسون العجوز ينهر الرجل القوى المتين ، الصلد المخيف ، الجالس بالباب ، صائحا به :

ـ اصح يا كسلان ، والا هشمت رأسك! ..

لو افاقوا ثانية واحدة عندئذ لفهموا ، ولكن ذهول الكاس أعجزهم عن التعرف على « مرمطون الحانة » وقد اتخذ مكانه عند بابها ، ضخما مسكينا محنى الهامة من التعب والذل والانكسار ..

وحتى عندما أقبل الرجل الضخم يرفع الكئوس وينظف الموائد ويجمع النفايات ، لم يفهموا شيئا ..

لم يفهموا أنه الرجل الذى تراءى لهم طوال الوقت صلدا هائلا مرعبا ، وبصائرهم تائهة فى ضباب الكئوس ..

كان طول الليل متـــــكوما عند الباب كالثور البائس ، ينتظر رحيل المخمورين الثرثارين •• وكانوا هم طول الليل يتساءلون : لماذا يرفع علينا هذا السيد العظيم سيفه البتار، يمنعنا الخروج الى بيوتنا وقد طال ثواؤنا فى هذه الحـانة اللعينة ، امتثالا لأمره ؟! ••

وقد خرجوا فى النهاية من الحانة ••

خلا الباب لهم عنـــــدما انصرف « المرمطون » الضـــخم المسكين الى جمع النفايات وغسل الكئوس ••

ولكن نجيب محفوظ تركهم يخرجون وهم عاجزون عن فهم ما حدث لهم أولا وأخيرا ••

وبينما هم منصرفون وقد اتسع البـــاب لهم ، والرجل الصلد يمسح ويغسل وينفض ، ألقـــوا عليه نظرة غائمة تتساءل :

ـ متى وأين رأينا هذا الرجل ؟!

لم يتـــــذكروه وليس بينهم وبين غارته على أوهامهم الا لحظات !

لم يحاول نجيب محفـوظ أن يذكرهم به ، فليس لدى نجيب محفوظ دواء جاهز لعقول الشـــــــاربين ، ولا حل لمشكلاتهم مع ضباب كئوسهم ••

ولحظة التنوير ـ ان صح مرة أخرى هذا التعبير ـ ليست لحظة مبتذلة يقول فيها موعظته أو يبين مغزاه ثم يمضى ! •

فحتى بعض قراء القصة الذين لم يقرعوا كأسا بـكأس فى خمارة القط الاسود ، قد يتساءلون فى نهاية القصـــة كما تساءل الشاربون :

ـ متى وأين رأينا هذا الرجل ؟!

فقد تركت القصة قارئهـــا يتعب بعض التعب بحثا عن الحقيقة كما ترك اخوان الصفاء ، أو اخوان الضـــباب في خمارة القط الاسود عاجزين عن ادراك الحقيقة وهي ماثلة بين أيديهم ، بائسة مريضة ــ وان كانت عريضة شامخة ــ تغسل كئوسهم ، وتنفض عن الموائد بقايا ضبابهم ، ونفايات وعيهم

وهو في ذلك كله ــ على قسوته ــ لم يتخل عن « واجب التنوير » .. ولكن التنوير في يد الفنان لا يشتعل احتراقا كالتنوير في يد الخطيب المصقع ، ولا يقلل من قيمـة الماء عند الناس أنه لا يشعل فتائل المصابيح ، فان الماء يشـعل الحياة في الارض والسماء ! ..

هكذا كتب نجيب محفوظ جميع قصص مجموعته الرائعة « خمارة القط الاسود » .. وليست خمارة القط الاسود الا احدى هذه القصص .. وقد جاءت قصـــــة « شهر زاد » ختـــاما لهـــذه المجمـــوعة ، فكانت مسك الختام .. كما يقال .. .. وكانت حقـــا قصة شـهر زاد العصرية البائسة المطلقة المتدهورة الباحثة عن شهريار بأى ثمن !

وتتمثل آخر صيحات فن القصـــة القصيرة عند نجيب محفوظ في عدد من القصص المتفردة بعمقها واتساق شكلها ومضمونها في هذه المجموعة الجديدة ، كقصة « المســطول والقنبلة » و « زيارة » و « صـــوت مزعج » و « رحلة » و « الصدى » و « كلمة غير مفهومة » ..

في هذه القصص وغيرها تنفذ من قلمه الى الحيـــاة والكون نظرة شاملة ، هي علامة فنه المسجلة ، وطالما تحدثنا عنها ، فلا غرابة فيها من هذه الناحية ، ولكنها تتجـدد مع

كل انسان جديد تنثال أيامه على أوراق نجيب محفـوظ ، فلا يتركه حتى يرسم علاقته بالمجتمع والطبيعة وما وراء الطبيعة ، ويقف به خلال ذلك وقفات روحية وحسية وذهنية فى كل مجال يخطر على البال ..

لهذا تبدو شخصيات قصصه عارمة ، لانها تسعى بين الارض والسماء ، وتمس الحياة جسدا وروحا ، وهذهمأثرة له بين كتاب القصة القصيرة الذين اعتاد بعضهم الجرى وراء نماذج بشرية باهتة كأنها ضور التليفزيون ، قد فسد فيه مفتاح درجة الوضوح ! ..

صحيح أن بعض أبطال قصص نجيب محفوظ يظهرون من هزالهم كأنهم موتى أكل الدهر لحمهم وشحمهم فلا يستطيعون أن يمسوا الحياة الا باطراف هياكلهم العظمية . أو يظهرون معطرين مترفين غارقين فى الجنس ، عارين من السجايا التى ناضل الانسان مائة الف سنة حتى اكتسبها وميز بها نفسه عن وحش الغابة ..

الا أنه حين يقدم الينا هذه النماذج ، يستكمل ما وراء ظواهرها فهو يرى كل ظاهر باطنا لا يسهل أن تراه كل العيون .. ثم يتعقب ما راى حتى يلج مكامن النفس وكهوفها السرية .. فتبدو بعض قصصه كأنها لوحات مرسومة للعقل الباطن من داخله ، أو تهويمات غيبية من وراء الواقع !

ولكن من يعرفون علاقة فن الكتابة ببواعث النفس الفنانة يقرون بأن الناس فى قصص نجيب محفوظ هم الناس بما فيهم من اضطرام اللحم والدم والنفس .. يراهم فى الحدود الواسعة الشديدة التعقيد ، المتعلقة بالحياة والكون .. وبالدهر كله من أزله الى أبده .. ولو

أراد نجيب محفوظ أن يريحنـــا لارانا النـــاس فى حدود ملابسهم الصوفية أو الحريرية فقط ·

لكنه لا يصور أفراحا لا وجـــود لها فى قلوب أبطـال قصصه ، إلتزاما بالتعبير عن الفـــرح فقط ·· ولا يزيف العلاقة بين الافراد والانظمة الاجتماعية ، ولا العـــلاقة بين الوطن والعالم من حوله ·· وهو لا يفتـــأ يبحث عن حل لمأساة الانسان فى عصرنا بعد خمسة آلاف سنة من البناء الحضارى ، والقنبلة الذرية تهدد ما بناه أسلافه وما بنتـه يداه ·· وتلك رسالة الفن الانسانى الصادق ··

مظلة نجيب محفوظ

الموتى ثائرون ، وأشباه الموتى ، والنـــائمون والحالمون والمسطولون ، واللامبالون والاذكياء والبلهاء ، والصادقون والكاذبون : الجميع ثائرون على أنفسهم ، ســـاخطون على حياتهم ، متخاصمون مع أرواحهـم وابدانهم ، يريدون أن يحرروها أو يحرقوها .. هكذا ترى أشـــكالهم والوانهم وصورهم وسحنهم المتجهمة المقلوبة النابضة بالحياة والموت معا ، وهكذا تلتقى بهم « تحت المظلة » .. مجموعة القصص الجديدة ، وأحدث صيحات الـــكاتب الفنان الكبير نجيب محفوظ ، وأقوى مغامراته الفلسفية الشـــاعرية ، المعقولة واللامعقولة ، فى مجاهل النفس البشرية ، وظـــلام الحياة والمجتمع والكون الفسيح بأرضه وســـمائه ، وما يمتـد ويضطرب بينهما من زمان ومكان وانسان أو حيوان (١) .

نجيب محفوظ يسمى هذه الروائع التى يكتبهـا « أدب موظفين » .. كما قال فى بعض أحاديثه الصحفية ! ..

ترى كيف كان نجيب محفـــوظ يكتب ، لو لم تسر به الحياة ثلاثين عاما أو أكثر فى طريق أدب الموظفين ؟! ..

وما أدب الموظفين الذى تحدث عنه نجيب محفوظ ؟ .. أليس هو أدب صفوة أدبائنا الآن وقبـــل الان ؟! .. وفى النطاق الادبى للوظيفة كتب كل منهم أو زعم أنه كتب ..

(١) انعكست فى هذه القصـــة احوال البلاد بعـد هزيمة ١٩٦٧ .

ومن كان خارج هذا النطاق حقا وفعلا وصدقا فليرم أدب الموظفين بحجر أو قنبلة يدوية ! ..

في مجتمع الاربعينات وما قبـــل ذلك كان الموظف لا يكتب في الصحف الا أدبا فقط .. السياسة محرمة عليه عملا وقولا وكتابة .. الآن ، يـكتب الموظف في كل شيء ما دامت الكتابة وظيفته ، ويكتب أيضا اذا لم تكن وظيفته الكتابة ، فالجميع يكتبـــون ، والادباء كثيرون ، ولا شيء يمنع الموظف أن يكتب قصة أو مسرحية أو قصيدة أو خطابا مفتـــوحا ، ولا شيء كذلك يمنعه أن يقبض ثمن ما يكتب قروشا أو ملاليم ..

وعندما بدأ نجيب محفوظ يكتب قبل ثلاثين عاما ، كان موظفا صغيرا في احدى الوزارات ، ولبث يكتب حتى أصبح موظفا كبيرا في وزارة اخرى ، فأدبه دائما كان أدبا مؤدبا : أدب موظف صغير ، ثم أدب موظف كبير ، ولكن أدبه المؤدب كان في جميع مراحله أدبا ثاقبا ناقدا حارا ، لا يتملق ولا ينافق ولا يمهد لصاحبه طريق الانتهاز والانتهاب .. كان نجيب محفوظ وما زال يقول في الخمر ما قاله مالك ، ولكن بأسلوب شارب الخمر ، أو ساقي الخمر ، أو المتفـرج على الخمر وسقاتها وشاربيها ! ..

هكذا ، حتى بلغ نجيب محفوظ في ســــياحته الادبية ورحلته الفـــكرية الكبيرة مظلة صغيرة وقف تحتهـا مع الواقفين في انتظار الاتوبيس أو الباص أو « الحافلة » بلغة المجمع اللغوي !

يختلط العقل والجنـــون والواقع والحـــلم والمنظر السينمائي والمنظر السحري أمام عيـــون الواقفين « تحت

المظلة » .. فالحادثة التى يشاهدونها لا يتسع لها العقل وحده ، ولا الجنون وحده ، ولا يستوعبها الواقع وحده ولا المنظر السينمائى أو السحرى وحده ! ..

حادثة قتل مع حادثة سرقة مع حادثة فاضحة ، أو فعل علنى فاضح لرجل وامرأة عاريين فى الطريق أمام عيون الرجال والنساء ، وانتهاك لحرمة الموتى وحرمة القبور ، وجرائم متنوعة بين الفتك والهتك ، وهى جرائم كثيرة غزيرة ترش أسفلت الشارع الاسود كما ترشه السحب بالامطار الغاضبة ..

والحقيقة فى هذا الزحام الجنونى من الحادثات الجسام والجرائم الشنعاء ، لا يتفق عليها ثلاثة ، ولا يتفق عليها اثنان ، ولا يتفق عليها واحد فقط بينه وبين نفسه ، كأنما رفعها الله من الارض واودعها خزانة فى السماء مغلقة باقفال ضخمة كالجبال ، يحيط بها حرس شديد من الملائكة يرمون من يتطلع اليها أو يدنو منها بالشهب الحارقة !

الارض أديم أغبر كاذب ، والحقيقة مرفوعة الى السماء ، أو مختفية فى مكان ما من الفضاء اللانهائى ، وقد حجبها غبار هذا الحلم الفظيع ، أو سواد هذا المنظر السينمائى المرعب الذى لم يخطر على بال هتشكوك ، ولا على بال حسن الامام ! ..

وكل ما يتتابع أمام عيون الواقفين « تحت المظلة » يملأ القلب بلهيب النجوم البعيدة الملتهبة فى فضاء الكون ، ويملأ العقل بشهب الملائكة المنقضة على رءوس الشياطين ، ويدفن وجدان الانسان واحساسه فى أعماق البراكين المصهورة بجوف الأرض ! ..

والقصة قصة لص سارق لا يمسك به الشرطى ، وفى الطريق تتصادم سيارتان وتشتعل فيهما النيران ولا أحد يهرع نحو الحادثة ·· « ولمح الواقفون تحت المظلة آدميا من ضحايا الحادث يزحف ببطء شديد من تحت احدى السيارتين ملطخا بالدم · حاول النهوض ولكنه سقط على وجهه سقطة نهائية ·· واللص راح يخلع ملابسه حتى تجرد عاريا ·· رمى بملابسه فوق حطام السيارتين ·· دار حول نفسه كأنما يستعرض جسمه العارى · تقدم خطوتين وتأخر خطوتين وبدأ يرقص فى رشاقة احترافية ، واذا بمطارديه يصفقون له تصفيقات ايقاعية ·· ان لم يكن منظرا تصويريا فهو الجنون » !··

ثم يدخل القصة الرهيبة رجل وامرأة « سارا متشابكى الذراعين · وقفا عند السيارتين المهشمتين · تبادلا كلمة · أخذا يخلعان ملابسهما حتى تعريا تماما تحت المطر ·· استلقت المرأة على الارض طارحة رأسها فوق جثة القتيل المنكفىء على وجهه · ركع الرجل الى جانبها · بدأ غزل بالايدى والشفاه ثم غطاها الرجل بجسده ومضى يمارس الحب ·· وتواصل الرقص والتصفيق وانهمار المطر ·· فضيحة ·· ان لم يكن تصويرا فهو فضيحة ، وان لم يكن حقيقة فهو جنون »

وعندما يبلغ القارىء نهاية هذه الاقصوصة الرهيبة ، يحمد الله على أنها كانت مجرد كلام مكتوب على الورق ، ولكنه يجد نفسه داخل القصة ، كانه سطر من سطورها ، لا يستطيع أن يفك منها يديه ورجليه وعقله وكيانه بأجمعه ·· لا يمكن ان تكون القصة مجرد كلام على الورق !

وهذه التجربة سيكابدها القارىء مع كل الاقاصيص

والمسرحيات القصيرة أو الحواريات القصصية في مجموعة « تحت المظلة » .. كل منها حلم يبدأ بكلمة وينتهى بكلمة، ولكن القارىء يظل حبيسا بين الكلمتين ! ..

وفى حدود « أدب الموظفين » وقعت هذه الاهوال تحت المظلة ، وتحت غيرها من الحواجز والستائر والجدران والظلمات وأجواز الفضاء الشاسعة التى ارتادها نجيب محفوظ فى هذه المجموعة القصصية الجديدة الفريدة فوثب بفن الاقصوصة أو بفن القصة القصيرة المصرية وثبة خطيرة باهرة .

واذا كان « أدب الموظفين » يبنى مثل هذا الصرح الادبى والفنى والفكرى ، فمن مزايا أدب نجيب محفوظ اذن أنه أدب موظفين .. وليت كل من يزعم انه خارج دائرة أدب الموظفين ، يدخل فيها .. ويكتب ! ..

نجيب محفوظ
والانسان والعسل

فى مذكراته القصصية البديعة التى يسميها « المرايا » ويوالى نشرها فى مجلة الاذاعة ، يومض أديب مصر نجيب محفوظ بلفتات فكرية وروحية يكشف لمحها الخاطف مساحاتٍ شاسعة من معاناته الفكرية والروحية بعد مسيرة بضعة وخمسين عاما فى حياته المديدة وفى حياة بلاده وجيله وعصره الواجفة بزلازل الفكر والروح !

قد لا تكون لفتاته الوامضة هذه جديدة على قلمه ، فهى من نفس النبع الذى تدفق بالفيض المتواصل السخى ، ولكن مذكراته القصصية أو مراياه الادبية التى يكتبها الان وقد اجتمعت له الحكمة من أطرافها ، تقدم هذه اللفتات كما يقدم الفنان المبتكر آخر صيحات فنه فتبدو جديدة تماما ، كأنها أشعة نجم جديد ولدته السماء ليلا والناس نيام ! ٠

يقول فى مذكراته : «لاتغال فى المثالية والا مت تقززا» ٠

ويقول : « ترديت كثيرا فريسة لكآبة روحية معتمة كدت ارفض تحت وطأتها التجربة الانسانية كلها » ٠٠

ههنا رجل حكيم متقزز من الغابة البشرية التى تحمل فى أخريات القرن العشرين ملامح القرون الوحشية الاولى ، ولكنه يرى أن التقزز عقوبة المغالاة فى المثالية ، لان المثالية اغضاء عن الواقع أو جهل به أو استعلاء عليه ٠٠

ومادام الحل لا يمكن استيلاده من التأمل المجرد الخيالى ، ولا من الرفض الفردى العقيم ، فان المثالية اذن تفضى الى التقزز ، والتقزز يفضى الى الموت قهرا وكمدا ·· ولا عزاء ! ··

تلتقى هذه المثالية الاخلاقية بالمثالية الفلسفية والفكرية التى تقف من الانسان والمجتمع والكون موقفا غير واقعى · والحقيقة أن المثالية الاخلاقية التى تثمر التقزز السلبى هى فرع من المثالية الفلسفية ، كلتاهما فى عصرنا طريق الكمد والقهر ورفض الحياة ، بل رفض التجربة الانسانية كلها ، أى رفض وجود الانسان وصيرورته أصلا ··

ولكن التقزز السلبى يصطدم فى شخصيات نجيب محفوظ « بسجايا قيمة جديرة باسترداد الثقة » ·· أى بصفات أصيلة تشجع الانسان على الثقة بنفسه وببنى جنسه وبالحياة والمجتمع ··

وفى المجموعة القصصية الجديدة « شهر العسل » التى صدرت أخيرا لنجيب محفوظ ، تتلاقى شخصيات متقززة تكاد « تحت وطأة الكآبة الروحية ترفض التجربة الانسانية كلها » ·· بل تكاد ترفض التجربة الكونية كلها وتطالب بنواميس جديدة ، لان النواميس الازلية صراع فى صراع ، ولا شىء يتطور ويزدهر الا بالصراع والقتال ، فلماذا تتطور الكائنات وترقى ، ولا تتطور النواميس وترقى لتصبح أقل ضراوة وأكثر رحمة ؟! ··

شخصيات القصص السبع الرائعة فى مجموعة « شهر العسل » تتقزز على هذا النحو ، وتمارس الحياة فى أدنى مستوياتها الجسدية كما تمارسها تفكيرا فى الكون والمثل

الاعلى ، وتتداخل سجاياها وحيواتها وتفترق كما تتداخل عناصر الطبيعة وتفترق في الكون الفسيح ، ..

وفي قصة «شهر العسل» التي تتصدر قصص المجموعة ، تعلو الثقة على التقزز وتكسب نهاية المعركة .. ينتصر الحق في ملحمة أسطورية كان يبدو أنه مهزوم فيها لا محـالة ، وينهض الانسان بذكائه وعمله وسجاياه فوق الانقاض ليبدأ من جديد ..

ولا تخلو بقية قصص المجمـوعة الرائعة من نصر يحققه عمل الانسان أو ذكاء الانسان ، ولكنه يخوض الى هذا النصر بحرا من التقزز والكآبة الروحية والتفـكير الباعث للقهر والكمد والاحتجاج على التجربة الانسانية كلها ..

ان نجيب محفوظ ، بطريقته الفـذة هذه ، يبشر بالثقة والامل وبلوغ الحقيقة ! .. يجوب أعماق الحياة والمجتمـع والكون قبل أن يأتي بالبشرى من مكانها البعيد ، أو مكانها العجيب ! ..

وهدفه أن يساعدنا على ألا نموت تقززا ، وعلى أن نواجه المجتمع والـكون بالذكاء المولع بالحقيقة ، البـاحث عن السجايا الانسانية القيمة الجـديرة باسترداد الثقـة ، وبنائها من جديد ، ثم مواصلة الحياة كيفما كانت وكيفمـا تكون ! ..

حواريات نجيب محفوظ

نجيب محفوظ أديب مصر ، وقد ملأ الدنيا وشغل الناس كما وصف النقاد فيما مضى أبا الطيب المتنبى ، يطلع علينا بفتنة أدبية جديدة ، أو غواية فنيـة جديدة ، هى مجموعة قصصه القصيرة الحوارية التى سماها « حكاية بلا بداية ولا نهاية » •• تيمنا باسم القصة الاولى من هذه المجموعة الثمينة ذات الحواريات القصصية الخمس •

بهذه المجموعة الجديدة يتخطى نجيب محفوظ أسـلوب مجموعته «تحت المظلة ». التى صدرت منذ عامين تحمل عناء الرؤية فى الظلام الحالك بعد هزيمة ٥ يونيو الفـادحة • فالحوار النابض الزاخر فى المجمـوعة الجديدة يفتح بابا للوضوح أغلقته العبارات التلغـرافية العصبية ، والافكار الكسيرة الغائمة فى المجموعة السابقة ••

وعسى الا يفتتن بعض القصصين الشـبان بفن الحوار الذى طلع به عليهم نجيب محفوظ ، فان هذا الحـوار فن خاص ، وافتتانهم به ربما تطيش معه حكمتهم الغضة ، فلا نقرأ فى قصصهم منذ اليـوم الا حوارا ، كأنهم يتبعـون الموضة الجديدة فى القصة المصرية كل عام* • وموضة هذا العام هى الحواريات البسيطة القصيرة فوق الركبة بخمس بوصات ، كل بوصة تساوى قصة ! ••

وقد نراهم يفعلون ذلك برغم ان بعض الادباء الشبان حاولوا في الزمن الاخير أن يقولوا لانفسهم ان مرحلة نجيب محفوظ قد انتهت كما انتهت من قبل مراحل أدباء كثيرين • ولكن هؤلاء الشبان لا يصدقون ما يقولونه لانفسهم ، فالحقيقة التى يلمسونها بأيديهم كما يلمسها كل ذى يدين أن نجيب محفوظ يشتمل على مراحل تتجدد بلا انقطاع لانه يعيش فى عصره يوما يوما ، ويمشى معه خطوة خطوة وقد يسبقه في الخطو •• وهذا ما يعجز عنه كثير من الشبان وان أكثروا من الكلام ! ••

واذا كان الجديد يحل دائما محل القديم ، فان الجديد هو الصيرورة الدائمة • وربما نظرنا الى بعض الناس فأدهشنا أنهم من القدماء وهم جدد الاعمار ، لانهم يتصورون ان الجديد هو الثبات الدائم على هذا الجديد الوحيد •

لا نقصد أن نجيب محفوظ « أديب خالد » أو « أديب لكل العصور » فلا خلود لشيء ، ولا شيء لكل العصور • ولكن نقصد ان هذا الاديب الكبير بتكوينه الفكرى والوجدانى والفنى يتجدد دائما ، ويصير من مرحلة الى مرحلة ، ويتلقى وحى الجديد لا وحى القديم ، ويقول لابناء عصره أحدث ما يقال ••

وأسلوبه الجديد فى القصة ـ أسلوب الحوار ـ يشبه أن يكون محاولة منه للاستماع الى الناس الذين لا يكثر بيننا من يستمع اليهم ، وقد وجد فى الحوار أسلوبا للتعبير يناسب هذا المقام •

وليس الحوار بالفن الجديد ، ولكن نجيب محفوظ يضعه فى منزلة الفن الجديد • تتصاعد الحوادث الجسام

وتتطور وتنمو الابعاد المادية والنفسية والاجتماعية لابطالها وصعاليكها من خلال حوار متين الاسر تكاد الشخصية فيه تخلق نفسها بلا تدخل من الكاتب ٠

نجيب محفوظ لا يريد ان يكتب مسرحا مع ان حـــواره يستوفى شروط الحوار المسرحى بلا نقصـــــان ، بل ربما بزيادة كبيرة اذا قيس الى ما نسمعه فى كثير من المسرحيات ذات الشهرة الفنية ٠ ومن مزاياه التى لا خفاء بها أنه برغم لغته الفصيحة ، يصدر عن الشـــخصية التى تتحدث به صدورا طبيعيا ، فلا يشك الســـامع أو القارىء أن هذه الشخصية تخوض حوارا حقيقيا ٠٠

وفى ثنايا هذا الحوار الحى المتدفق ، نتابع بوضوح تام تطور العمل من نقطته الاولى الى ذروته الاخيـرة ٠ ولو كان الحوار خاملا أو ذهنيا جامدا أو مفتعلا بأى شـكل ، لخفى عنا ما يعتمل فى ثناياه ، ولما تجسمت أمام انظارنا صـورة الحركة المسرحية ونحن نقرؤه أو نسمعه بعيدا عن المسرح وبلا ممثلين ٠٠

يقول نجيب محفوظ انه بهذا الاسلوب لا يصنع مسرحا، ولعله لا يصنع قصة كذلك ٠ ولكنه على أية حال يزداد قربا من القارىء ، ويحاول ان يشـــترك فى انقـاذه من اللغو والثرثرة والخطابة ، بعد ان شبع منها فى الاعمال الادبيـة والفنية ٠٠ وغيرها ! ٠٠

حكاية حارة نجيب محفوظ

تبدو بعض « حكايات حارتنا » لنجيب محفوظ غاية فى السذاجة وكأنها حكايات اطفال •• مثلا •• الحكاية رقم « ٦٦ » ـ وانقلها اليك كلها ـ تقول :

« وراء قضبان نافذة بدروم ، يلوح وجه صبى صغير ، اذا رأى عابر سبيل أليف المنظر هتف به :

ـ يا عم ••

فيقف العابر ويسأله عما يريد فيقول :

ـ أريد أن اخرج

ـ وماذا يمنعك ؟

ـ باب الحجرة مغلق !

ـ الا يوجد أحد معك ؟!

ـ كلا ••

ـ أين امك ؟

ـ اغلقت الباب وذهبت

وأبوك ؟

ـ سافر من زمان

ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيبتسم اليه مشجعا ، ويذهب ، ويلوح وجه الصبى الصغير وراء القضبان وهو يتطلع بشوق الى الناس والطريق » ..

انتهت الحكاية ..

بساطتها لا تحتاج الى كلام .. اعنى سذاجتها .. ولكنك تجد نفسك أمام لغز محير عندما تتأمل فى حكاية هذا الصبى الذى يعيش فى قبوه بلا أب ولا أم .. كلاهما سافر من زمان أو أغلق الباب وذهب من زمان .. أيضا . فالصبى حبيس هنا بلا طعام ولا شراب ولا شىء على الاطلاق يبقيه حيا الى التطلع الى الناس الاحياء وتبادل كلمات مع بعضهم ! ..

اذا تأملت « الحدوتة » القصيرة الساذجة من هذه الزاوية لم تجدها قصيرة ولا ساذجة وهكذا ما تضمه مجموعة « حكايات حارتنا » التى اصدرها اخيرا كاتب مصر الكبير نجيب محفوظ .. انها « فتافيت » عجيبة ، لا أقول انها بلغت كلها حد الروعة أو حدا يثير الاعجاب ولكن المؤكد أن لها النفاح الفنى نفسه الذى يتضوع دائما فيما يكتبه هذا الكاتب الفنان أو السحر الفنى العجيب ..

ان نجيب محفوظ هو ابن الحارة المصرية .. والحارات درجات ، حارات ذات مستوى واخرى منحدرة الى نهاية سفح الدنيا ، ولكن نجيب محفوظ ـ ابن الحارة ذات المستوى ـ عاش فى قمة الحارة وفى سفحها وفى اقبائها ومجاهلها ، فاصبح « عالميا » فى انتسابه الى الحارة المصرية، كما يوصف بعض الناس بانهم مواطنون عالميون وان انتسبوا بميلادهم ونشأتهم وارومتهم الى الوطن بعينه ..

و « العالمية » هى المذهب الاساسى لنجيب محفوظ فى

الفكر والفن • ومعناها الذى اقصده ان نجيب محفوظ ينظر في كل ما يكتب الى الانسان والحيـــاة والمجتمع والدنيا والمجموعة الشمسية والمجرة والــكون بأجمعه ، ولو كان ما يكتبه بضعة اسطر عن طفل يخاطب المارة فى الشــارع من نافذة بدروم ! ••

طبعا ، لا يمكن أن تستوعب مثل هذه الاســطر من فن هذا الفنان وفكره ، ما تستوعبه رواية مثل «الطريق» أو «الشحاذ» أو «ثرثرة فوق النيل» أو قصـــص قصيرة كاملة الاوصاف كقصص «خمارة القط الاسود» و «شــهر عسل» و «الجريمة» •• مثلا •

ولكن المهم ان مذهبه فى نســج فنــه لا تختلف مادته الذهبية لا فى الادوار ولا فى الطقـــاطيق •• انه وطنى الرؤية ، عالمى الافق ، كونى التطلعات والاشواق •• سواء كتب رواية من ألف صفحة ، أو حكاية من عشرة سطور •

ولهذا سيعيش الكثير مما كتبه نجيب محفوظ أجيــالا كثيرة ، وان كان هو – على رغم ما وصفنا من عالمية وكونية – لا يؤمن ببقاء شيء بعد أوانه ، ولا بامتـــداد فكر بعد انقضاء الجيل الذى اتتجه •• ولا يدهشنى أن أتصـــور الناس بعد عدة أجيال اخرى ، وقد انهمـــكوا فى مطالعة «حكايات حارتنا» •• هذه المجموعة الساذجة الذكية التى تنطبع فيها صورة صادقة من صور مصر لا يبليها الزمان •

بقى ان يسمح لى من اخرجوا بعض هذه الحـــكايات الجميلة على شاشة التليفزيون فى رمضان الماضى ان أقول انهم اساءوا الى الكثير منها نعم هى حكايات تبدو ســاذجة سهلة بسيطة ، لكنها ليست كذلك الا على الورق . أما عند تحريكها دراميا فهى شيء صعب حقا ••

وقد أجادوا اخراج بعضها عندما فطنوا الى هذه الحقيقة، ولم يجدوا عندما غفلوا عنها • ولا انسى « هيافه » احراج الحكاية رقم ٥٤ عن الفتوة عباس الجحش ، التى كان فى الامكان ان تكون ـ لو تأملوها واستوعبوها ـ أحسن مما كان منهم بكثير •• دعك من تحول الحكايات في أخريات رمضان الى ما تحولت اليه من تدهور فنى غير معقول ••

وانما اذكر الان ما وقع من هلهلة تليفزيونية لبعض هذه الحكايات ،لان اغلبيتها لم تظهر على الشاشة الصغيرة ولا الكبيرة بعد ، وان فيها لمادة درامية تصلح لهما ، فان فكر أحد من الناس ان يأخذ هذه المادة فليرفق بها كل الرفق ، وليكن أمينا فيما ينقله عن الورق الى الشاشة • فليس استخراج الفن من هذه الحكايات الساذجة عملا ساذجا •• فان مؤلفها الاريب هو ممن عناهم أبو الطيب المتنبى بقوله :

الالمعى الذى يظن بك الظن
كأن قد رأى وقد سمعا

وليس معنى هذا البيت هو ما أريد ان أقوله بالضبط ، ولكن لم يخطر على بالى ساعة كتابتى هذه السطور بيت أقرب من هذا البيت الى المعنى الذى أريده •• وكلال الذاكرة غير مشكور ، ولكنه ـ فيما أرجو ـ مغفور مجبور !

نجيب محفوظ
وهضبة الهرم

عندما تصفحت المجموعة القصصية الجديدة لنجيب محفوظ : « الحب فوق هضبة الهرم » وكان أكثرها منشورا في الصحف خلال السنوات القلائل الماضية .. تذكرت حديثا صحفيا لنجيب محفوظ نشر منذ أسابيع ، يقال فيه على لسانه انه توقف عن الكتابة مؤقتا ريثما يجد موضوعات للكتابة ، تعيده اليها ، أو تجدذ له عزيمة فيها

فنجيب محفوظ يشبه عنوان مجموعته القصصية الجديدة .. يشبه الحب فوق هضبة الهرم ، مع الفارق طبعا في القياس والمقارنة .. ومع الاعتذار أيضا ! ..

ان نجيب محفوظ يعيش منذ بضعة وعشرين عاما فوق هضبة هرم الرواية والقصة فى مصر والبلاد العربية الشقيقة .. وهى هضبة فكرية فنية وجدانية وعرة ، وان كانت تبدو من بعيد خضراء شجراء ، تجرى من تحتها الانهار ! ..

وهو يكتب عن الحاضر والماضى والمستقبل .. يبشر وينذر ويؤرخ ويصنع أدبا وفنا لنا ولمن يجىء بعدنا ، وان كان يصرح دائما بانه يعتقد ـ فلسفيا ـ أن المستقبل لن يبالى بشىء يخصنا نحن الحاضرين ، فسنكون لديه عندئذ غائبين ، وسوف تكنس الايام والليالى فى عصفها كل شىء

كما تكنس حفنة تراب ·· وباخرة الدهر دائما تسير ··
أعنى طائرة الدهر ، بل صاروخه وسفينته الفضائية ! ··

وفى حديثنا هذا لا نحتاج ان نعود القهقرى الى ثلاثية نجيب محفوظ وما انطبع على صفحاتها من بدايات القرن العشرين فى مصر ··

يكفى أن نعود الى رواياته بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ثم نمضى معه الى يوم الناس هذا ·· فنرى ان هذه الروايات تمثلت فيها مرحلتان · احداهما فى « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » و « الطريق » و « الشحاذ » و « ثرثرة فوق النيل » و « ميرامار » ·

أما المرحلة الثانية ففى « المرايا » و « الحب تحت المطر » و « الكرنك » و « قلب الليل » و « حضرة المحترم » ·· وعدد من المجموعات القصصية ، أحدثها مجموعة « الحب فوق هضبة الهرم » ·

كانت روايتا « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » أول خطوة لنجيب محفوظ نحو ما استجد فى البلد بعد ٢٣ يوليو · مقتربا بنظرته الفنية الثاقبة من تيار الحياة اليومية والعامة ·· الظاهرة والباطنة ، لمجموع قومنا فى هذه المرحلة التاريخية المضطربة البالغة الاثر فى الحاضر والاتى ··

والبطل فى هاتين الروايتين رجل أو شاب أو شابة أو امرأة من الطبقة المتوسطة الصغيرة المثقفة أو ما فوقها أو تحتها بقليل ·· وقد لبث هذا البطل يخدم الفن الروائى لنجيب محفوظ خدمة جادة مخلصة مثمرة ، بلا انقطاع منذ ذلك الوقت حتى الان · وكانت بداية خدمته فى الحقيقة

سنة ١٩٤٥ حين صدرت رواية « القاهرة الجديدة » .. بل قبل ذلك بسنوات حين كتب نجيب محفـوظ هذه الرواية الباكورة الفريدة ! ..

فى كل رواية يجىء بطل هذه الطبقة ذات الحســـاسية المفرطة ، واليقظة الفائقة لكل ما حولها من أشـــياء تتغير بسرعة أو ببطء ، أو تجمد ، أو تنقـــرض ، أو تتقلب بها الايام علوا وسفلا .. يجىء هذا البطـــل الامين لدوره ، فيرتدى مسوح الشخصية ، ويتقمص العمل الفنى والفكرى الذى أعده له نجيب محفوظ ..

ولنا أن نقول بعد طول متابعتنا هذا البطـــل القادم من الطبقة المتوسطة المثقفة أو غير المثقفة ، انه قد يـكون قوى النظر الى الحياة ، قديرا فى ممارسة الدنيا ومكابدة حرب الناس من فوقه ومن تحته ، وعن يمينه وعن شماله ، وفى كل الظروف ! ..

انه بطل الازمان والتغيرات والنكسات والانتصـــارات الاجتماعية والسياسية والفكرية والدينيـــة فى كل روايات نجيب محفوظ .. تراه فى «اللص والكلاب» وفى«السمان والخريف » .. وفى « الطريق » و « والشـــــــحاذ » .. و « ثرثرة فوق النيل » .. وتراه فى القصـــص القصيرة ايضا ..

وهو ينمو فى الرواية أو القصة مختلطـــا بالناس ، او منعزلا عنهم .. وهو يحيا فى الاحداث العامة حياة انفعـال أو حياة نضال ، ويتطفل أحيانا او يتفـــرج على كبريات الحوادث .. وقد يتقدم الى معتركها فيكون له فيها عمـــل مؤثر ، أو عمل يقذفه الى مصير مخوف ! ..

والمصير العام للناس يؤثر فى المصير الخاص للبطل ، وأمام ناظريه تتجادل الاحوال والمصاير المختلفة ، ممسكا بعضها برقاب بعض ! ..

وعندما ظهرت أولى الروايات « الثورية » لنجيب محفوظ سنة ١٩٦١ كانت خالية تماما من الخطابة الحماسية والكلمات المنبرية الواسعة الانتشار أيامئذ فى الادب والفن انتشار عجز أو ابتذال أو افتعال .. وكان نجاح روايات نجيب محفوظ وسط تلك الضجة من سجع المنابر ، دليلا على أن القارىء المصرى يريد أدب التصفيق والزغاريد ، ولا أدب المدائح والمعلقات فوق أستار ٢٣ يوليو .

وفى مجموعته القصصية الجديدة التى صدرت أخيرا لا يتخلى نجيب محفوظ عن هذا النهج ، فتراه فى كل قصة مندمجا مع الانسان والحياة والكون فى نظرة أو فكرة شاملة قدر طاقة الانسان .. وتراه يفتح باب الحدث العابر فى حياة أبطاله لتدخل منه كبار المعضلات .. فالوشائج بين كبار الامور وصغارها بالغة القوة والجبروت، وان كانت فى دقتها بالغة الخفاء أحيانا ، بل فى أكثر الاحيان ! ..

وفى هذا العمل الفنى المتشعب المعقد ، يبدو نجيب محفوظ مصرى الوجه واليد واللسان ، شعبيا كل الشعبية، بمعناها فى الكتب ومعناها فى الشارع .. غير منحاز الى طبقة ، وان كان منحازا عن قهر الطبقات .. لا يدعو الى طريقة معينة فى تنظيم المجتمع ، الا ما يصدر عنه من أفكار وكلمات عامة تلمح فيها الاشتراكية والديموقراطية والخيال والعلم والفن والفلسفة ، وتهاويل شتى من الالهام الرفيع ! ..

و « مجموعة الحب فوق هضبة الهـــــرم » جاءت بعد مجموعات كتبها فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ الفادحة ، فكانت تلك المجموعات رموزا وغيوما •• بعضها لا تفهمه غالبيـة القراء ، وأشهد أنى تضامنت مع هذه الغالبية عندما قرأت مجموعة « تحت المظلة » ••

ولكن بعض هذه المجموعات يحفل بروائع من الشـــعر الرمزى والقصص الرمزى معا •• مثل مجموعة « خمـــارة القط الاسود » .•• وهل ينسى أحد روعة القصة القصيرة التى تحمل هذا الاسم كما تحمله المجموعة كلها ؟! ••

والسؤال الان : هل هجر نجيب محفوظ فن الرمز بعد هاتين المجموعتين ؟! ••

لا أرى ذلك •• وأظن الكثيرين لا يرونه ، فان مجموعاته ورواياته التى نشرت بعدهما ، لاتخلــو من الزمز ، وقد تغلو فيه هنا أو هناك •• وكيف يزعم امرؤ لا يلمح وميض الرمز فى هذه الاعمال جميعا • ما عدا « الكرنك » ! ••

ولكن شتان بين الرمز الذى يشبه التعمية وطمس المعالم كما رأينا فى مجموعة «تحت المظلة» •• وبين الرمزالغنى الشاعرى فى مجموعاته الاخيرة ، فان بلاغة الرمز فيهـــا لا يبلغ شأوها الا الموهوبون الملهمون ، وهو يزيد القصـة وضوحا ويجعلها أكبر حجما وأوسع مســاحة وأدنى الى قلب القارىء وعقله معا !•• ان الرمز هنا كالوجه الجميل، يزيدك حسنا كلما زدته نظرا ، كأنه محبوبة الشاعر أبى نواس فى سالف الزمان ••

وهذا ما نجده فى مجموعة « الحب فوق هضبة الهرم » • فهل ينسى أحد المطربة « نور القمر » الجميلة المغردة التى

« تتــألق بأبهة الانوثة الــكاملة ، ولا تغنى الا الاغانى القديمة » •• وتغرد فى قلب الليل بلحن محمد عثمان فى دوره الشجى : « كادنى الهوى » ؟! ••

آه •• ثم آه •• ثم آه ــ كمـا كان يصرخ الدكتور زكى مبارك فى مقالاته قديما ــ من روعة رمز القصــة وقصــة الرمز ، وعبقريتهما حين يلتقيان على قلم نجيب محفوظ فى حياة « نور القمر » ! ••

ان هذا الكاتب الكبير يرتفع فى هذه القصة بجناحيه ، ويخاطبنا من عل ، وهو انما يتحدث الينا نحن أهــل هذه الارض عما يضطرب فوق أرضنا ، لا عما يسبح فى أجواز الفضاء ! ••

وفى قصة « الحب فوق هضبة الهرم » يجــلس نجيب محفوظ القرفصاء ، كأنه الكاتب المصرى القــديم ، يكتب الحقائق مجردة عارية تتراقص فى حيــاة أبناء الاشــعة الاخيرة من شمس القرن العشرين فى عاصمة وادى النيل ، وفى الدنيا من حولها ••

ولسنا بصدد تلخيص قصة ولا نقدها ، انما نحاول وقد التقينا بهذا العطاء الجديد لكاتبنا الكبير ، أن نعرف كيف فتن الناس فتونا ، وكيف أخمل ــ ولا ذنب له ــ جميــع من جاءوا قبله ومن جاءوا بعده فى مجاله هذا الذى يصول فيه ويجول وقد ملأ الدنيا وشغل الناس ! ••

وقد يكون من الحق أن نجيب محفــوظ يبحث الان عن موضوع ، ولكن موضوع نجيب محفوظ يبحث عنه ايضا ، ويضع نفسه تحت سن قلمه ساعة الالهام ! ••

حضرة المحترم نجيب محفوظ

يحزنى نفس هذا الرجل المحترم الذى ناضل عشرات السنين ليظفر بمنصب مدير عام ، ان التعيين والترقى والاحالة الى المعاش ، والحب والزواج والطلاق ، وصراعات السياسة وشعاراتها ، تتعاقب تعاقب الليل والنهار ، وكل شىء يمضى فى سبيله دون مبالاة به ، وهو الرجل المحترم ، بل هو « حضرة المحترم » الذى بلغ رتبة « الحضرة » بالجهد الجهيد .

فى بداية البداية ، انفتح له باب غرفة مترامية لا نهائية ــ هكذا خيل اليه حين وقعت عليها عيناه لاول مرة ــ و « تراءت له دنيا من المعانى والمثيرات » فى هذه الحجرة المحدودة بجدرانها وسقفها وان كانت تبدو لا نهائية كالفضاء الاعلى امام ناظريه .

تلقى عثمان بيومى فى هذا الفضاء المترامى اول صدمة كهربائية فى أغوار نفسه ، لكنها صدمة ذات بهجة ، خفق لها قلبه جنونا بالحياة « فى ذروتها الجليلة المتسلطة » .

وفى حضرة ذلك الشخص الصنم المتاله الجالس على كرسى المدير العام ، احس عثمان بيومى الكاتب الجديد فى الارشيف ان نداء من أعماقه يدعوه للركوع ، بل يملؤه رغبة حارة فى التضحية بالحياة ذاتها فى سبيل كرسى المدير العام .

وبين هذا اللقاء الاول مع المدير العام فى قاعة كرسيه الفخيم ، وبين اللقاء الاخير مع موظفي المصلحة بعد عشرات السنين ، وقد أصبح كاتب الارشيف نفسه مديرا عاما ، غمرت النفس مياه السنين ، بأغزر مما تغمرها مياه المحيطات والبحار والانهار كلها ، وبدأ له مع خيط النهاية الاسود ، وهو يجود بأنفاس الحياة ، ان كل شيء مثل كل شيء ، باطل الاباطيل ، الكل باطل ، حتى منصب المدير العام ، وكرسيه ، وقاعة كرسيه بأبهتها الاسطورية .

سيقول النقاد والادباء ما يقولون عن رواية « حضرة المحترم » .. أحدث روايات نجيب محفوظ ، وسيتولى الكثيرون منهم اسقاط كلامهما على اشياء وأشياء ، وسيشتد التأويل ويتشعب هنا وهناك ، وسيحاكمونها الى قواعد فن الرواية ، كما يحاكمونها الى السياسة والفلسفة والدين وكل مافى جعبة النقاد والمثقفين الراسخين .

وان لهم لعذرا فى ذلك كله ، وقد كنا فى السابق نصنع ما يصنعون حين نقرأ رواية أو ديوان شعر أو أى عمل ادبى ، اما الآن ــ لحسن الحظ ــ فأصبح يكفينى ان أطالع فاطرب أو لا اطرب ، فان طربت لم اسأل نفسي لم طربت ، وان فاتنى الطرب ، فاتنى ولم أخسر شيئا .

وموقفى من كتابة نجيب محفوظ الآن ، كموقفى من غناء ام كلثوم .

فى الماضى ، كان اول همى ان ارى كيف اختار اللحن لمقام والايقاع وصنع الجمل الموسيقية ، وكيف تولت ام كلثوم اخراج اللحن بنبرات صوتها السماوية وما تحويه

من ذبذبات وعرب ـ بضم العين وفتح الراء ـ وتوشيات من وراء العقول .
اما الآن ، فانى اذهل عن كل أولئك ، ولا القى بالا الا الى الصوت مجتمعا بكل تأثيره فى الوجدان ، ولا أسأل نفسى عما وراء ذلك .

وذلك ما اصنعه الان حين أقرأ لنجيب محفوظ .

ليكتب فى الماضى ، أو فى الحاضر ، أو فى المستقبل ، او فى الواقع ، أو فى الخرافة .

ليكتب عن شخصيات ايجابية محضة ، او سلبية تماما ، ولتكن روايته باكملها عن رجل نذل ، او عن رجل ذى ضمير ، فليس من حقى ان أكون مدير ادارة الادب ، وليس من حقى ان اطالبه برجال ونساء سعداء ، أو اذكياء او مناضلين فى سبيل الوطن .. ان الادب الهام ونظرة الى الحياة والمجتمع والكون ، جملة أو تفصلا .. ولم يخلق الله بعد موظف أدب ، على أية درجة من الدرجات ، ولو كانت درجة المدير العام التى بدت لحضرة المحترم عثمان بيومى عند أول نظرة مثل « موجة من نور باهر ، احتواها بقلبه وشد عليها بجنون » .. ثم بدت له فى آخر عهده بالدنيا كسراب فى صحراء .. وتذكر وقتها مصارع زملائه مديرى العموم السابقين بالسكتة والذبحة والانهيار العصبى والامعاء ، ورحلاتهم المتتابعة الى مراقد الصحراء ، واحدا اثر واحد ، تنثال على اجداثهم المراثى الركيكة والمراثى العصماء ، قد أصمهم عنها ما ورد عليهم من الراحة الكبرى بعد البلاء الجسيم !.
ماذا يريد نجيب محفوظ ان يقول فى رواية « حضرة المحترم » ؟!. هكذا يسالون .!

انه يقول الواقع .. يقول الحياة ، يدعو الى الصمود والبسالة فى مواجهة الواقع برغم جميع المثبطات ، بل يدعو الى الاستشهاد ، ولكن الحياة نفسها ليست جاربة يملكها الرجل تأتمر بامره وتنتهى بنهيه ، وانما هى صخرة لا تحركها أغاريد الانسان ولا دموعه ، وقد لا يحركها حتى عمله الدائب المستميت ، فيبدو كل شيء عندئذ مستحيلا ، وتبرز أمام عيون الناس بشاعة موقفهم فوق الارض ، وان أحاطت بهم الروعة والجمال والاشراق فى طبيعة الكون ، وفى طبيعة الانسان ذاته ..

أكان « حضرة المحترم » يخبط فى صحراء وجودية حارقة ، تمتد كالحرية امام عينيه ، ولكنه فيها وحيد مهجور مخفق غائص فى رمال مأزقه ، قد تساوت لديه جميع الاعمال ، واصطدم اول أيامه فى الدنيا بآخر ايامه ؟!

قد يكون شيء من ذلك فى صفحات « حضرة المحترم » ولكن المجتمع على صفحاتها ايضا يخطو ببطء أو ببعض السرعة .. يتقدم على اية حال ، يتطور ويبحث عن الاحسن والاصح.. والناس يتسلحون بالعلوم ويصطدمون بالمجتمع القديم ، بل بالطبيعة ذاتها ، مع أنهم يسقطون صرعى ، ويفشلون ، ويترنحون فوق ارض فكرية تشبه الرمال المتحركة .

كان عثمان بيومى حضرة المحترم ، يائسا ، يتيما ، فقيرا ، مخفقا ، فتصدى للاخفاق والفقر واليتم واليأس ، ونجح وبلغ مراده ، ولكن فى النفس الأخير .

واية فكرة انسانية يتضمنها الادب أو الفن لا يمكن ان تزيد على ذلك ، ولكن تهاويل علاجها قد تخفى وجهها ،

بل قد تبديه على غير حقيقته عند من لا يدقق .. ولو مررنا متعجلين على رواية « حضرة المحترم » لقلنا : يأس وجودى ، وعودة الى فكر قديم ، ورمز الى غير موجود فى عصرنا ، ولكن « حضرة المحترم » فى الحقيقة صفحات مجللة بالرمز والايحاء والغيب ، تمر بسرعة ودقة وجزالة ورقة ، وتقدم لك انسانا بين مجموعة من الناس عاشـــوا واقعهم الارضى الصلد ، كأنهم من أبناء كوكب آخــر أو اشباح اساطير .

حرافيش نجيب محفوظ

انتظرت ان اسمع من هنا او هناك ان رواية « الحرافيش » لنجيب محفوظ ستتحول الى فيلم سينمائى ، فلم اسمع شيئا من ذلك حتى الآن ، فالظاهر ان هذه الرواية التى سميت « ملحمة » تحير السينمائيين ، فلا يدرون من أى النواحى يأتونها ، كأنها بحر لا ساحل له . وليس هذا بتشبيه ، ولكنه الحقيقة ، فان الحرافيش بحر متلاطم من فنون « القول » لا تدرى ماذا تقول عنه ، فكيف والسينمائيون لن يقولوا عنه كلاما ، بل سيأخذون منه — ان فعلوا — حياة وموتا لأبطال افلامهم ؟! .. ثم نجاحا او فشلا لشبابيك تذاكرهم ؟!

تشبه « ملحمة » الحرافيش مصب نهر طويل عميق غزير تمور ملء مجراه مياه تحدرت فيه من أعلى الجبل ، ومياه انحازت اليه من روافد فى الطريق ، ومياه هطلت عليه من السماء .

وتشبه هذه الملحمة « شعب السيل طغت فى ملتقاها » على حد قول شوقى فى بعض شعره ، لان الحرافيش — الرواية او الملحمة — هى ملتقى هذا السيل الفنى الفكرى الادبى الفلسفى الذى لبث يهدر ويتدفق ويندفع الى الامام اربعين عاما ، هى فى عمر الكاتب الانسان ، كاربعين مليون عام فى عمر النهر منحدرا من منبعه الى مصبه ، مكتسبا تجارب الارض وما فوقها وهو يحفر مجراه ، سخيا بمائه على الارض اللينة التى تسمح له بالجرى

فيها ، غير بخيل على الارض الوعرة التى لا تسمح له بالنفاذ منها فيلتف حولها تاركا لها الرى والنماء ، مشتدا فى جريه بعد أن يتخطاها لا يلوى على شىء !.

ان الحرافيش - أحدث اعمال كاتب مصر الكبير نجيب محفوظ - هى كل ما رأيناه فى دنيانا المصرية هذه على امتداد اعمارنا ، وهى ارهاص بأشياء قد نراها ، فأن لم نرها فانها هى سوف ترانا ، كما ترى آثار الذاهبين !.
ومن لم يقرأ نجيب محفوظ فى رواياته ومجموعات قصصه طوال أربعين عاما ، ثم قرأ الحرافيش ، فقد عرف من هو هذا الكاتب الكبير ، وان لم يشاهد منه الا هذه « اللقطة » الكبيرة وحدها من صورته الجليلة الشأن .

ان السينمائيين الذين يحجمون حتى الان عن الدلو من هذا البحر الزاخر الذى انفجر من أنامل الكاتب الكبير ، أعظم حجة فى هذه المرة منهم يوم ترددوا وانكمشوا حيال ثلاثيته الشهيرة ، فان الحرافيش ، هى امتداد الزمان فى النوع الانسانى كله ، لا مجرد امتداد انسان فرد فى مدى من الزمان يقصر أو يطول .

فالحرافيش ليست قصة ثلاثة اجيال أو اربعة ، وليس فيها ما يجتزئه القارىء .

وهذا هو وجه صعوبتها الذى جعل أخبارها غير واردة حتى الآن ضمن اخبار « بورصة » السينما المصرية .

والحق ان الحرافيش تفتح بابا للتأمل والنظر فى عجز فنون السينما والفنون الحديثة المشابهة لها عن مجاراة فن الكتابة ، وهو الفن القديم الذى يتنبأ بعض هواة

التنبؤ بانقراضه فى يوم قريب وحلول فنون لصور المتحركة الناطفة مكانه !.

ان فن الكتابة هو فن القول منقوشا على الورق ، وفن القول فى حقيقته وليد الجهد الخارق الذى بذله الانسان الاول للتعبير الواضح المحكوم بضوابط العقل ، المرتبط بدخائل النفس البشرية والمجتمع والكون !.

واذا كانت غاية تقدم التعبير البشرى ، أن يصمت البشر آخر الأمر وتتكلم صورهم .. فما أعجبه من تقدم الى الوراء ، وليت « التكنولوجيا » تعفينا من عبقريتها فى هذا المجال !.

ثم اننى أسارع فأطمئن نجيب محفوظ باننى لا اشط بكلامى هذا عن ملحمة حرافيشه ، أهل الفن السينمائى ، وانما احذرهم فقط ، فليس الامر فيها رقصا ومظاهرات وحلقات ذكر ورفع العقيرة بكلام أعجمى ، وقتل هذا ، وخطف ذاك ، وتمنع هذه المرأة واستجابة المرأة الاخرى .

وليس الأمر فيها ايضا بحث امرىء عاجز أو قادر عن الحقيقة ، ولا اقامة نصب تذكارى للبطولة .. وانما هى فى جوهرها صيرورة هذا الناس كله ، بأرضه وسمائه ، من البداية ، بلا نهاية !.

وهذه الرواية وان كانت تتسع لكل التأويلات ، غير انها ليست خيطا واضطرابا غيبيا أو « ميتافيزيقيا » مع ان فيها لمحات من خبط الغيب واضطراب الانسان حيال ما لا يدركه عقله ، وما يحار فيه جنانه الذى هو بديل عقله حين يعيبه الادراك .

ولعل قارىء هذه الملحمة يرى فيها وجه الحقيقة ،

يحجبه ستر شفيف من الحقيقة ذاتها ، أو يرى الحقيقة كائنا حيا يتحرك فيثير الدخان فى وجهه أو يثير الغبار ، فيضيعه هذا الغبار كما أضاع نجيب محفوظ بعض أبطال قصصه من قبل فى غبار الحقيقة ، أو على حد تعبير شاعر فارسى قديم : « كما ضاع أبو على فى غبار ناقة الحقيقة » .. ولو كان نص هذا الكلام مكتوبا عندى بالفارسية لسجلته هنا ، اضافة الى ما سجله نجيب محفوظ من الشعر باللغة الفارسية فى ملحمة الحرافيش الرائعة .

ثم انى لا أجد ما أقوله الا أن الحرافيش هى من نفس ذلك النبع المتدفق الذى يجرى بالزيادة دائما ، من فكر نجيب محفوظ المتجددة الحيوية ، ووجدانه وفنه وبيانه ، ففيها مذاق ماء هذا النبع ، وفيها عناصره كلها ، وفيها ما فى كل كتاباته من تعلق الحقيقة الانسانية بالمجتمع والكون كله ، وبالتاريخ المعاصر والغابر ، وبالمستقبل والحاضر ، ربما يسع الانسان الفرد ، ويسع الكون اللانهائى !

ان الحرافيش عقل ووجدان ، وذكاء وحب للخير ، وسخرية وجمال ، ومثل أعلى ، وطين لزج ، وسماد من زبرجد ، وأرض من خير وشر وموت وحياة ! ..

وحسبك أن يلقاك الكاتب العظيم بهذا التكوين الفذ من عمله ، فانه يلقاك بشطر عظيم من حياته وحياة الناس .. وحياتك ! ..

قهوة نجيب محفوظ

كتب نجيب محفوظ روايته الجديدة « الكرنك » فى سنة ١٩٧٠ واتمها سنة ١٩٧١ ، ونشرها سنة ١٩٧٤ بعد أن توافر ما لم يكن متـــاحا من حرية التعبير والنشر فى الموضوع الذى تطرقه هذه الرواية الاولى من نوعها في الادب المصرى الحديث .

والكرنك قهوة أو مقهى فى حى شعبى من احياء القاهرة .. صاحبته راقصة متقاعدة ، وزبائنه مجموعة من لشبان والشـــابات والـرجال والـكهول والشيوخ أصـحاب المعاشات .

وعند رواد المقهى من الشباب .. « يبدأ التاريخ بالثورة مخلفا وراءه جاهلية مرذولة غامضة » .. كما تقول الرواية .. فهؤلاء الشباب يبدأ تاريخهم وتاريخ بلادهم بما حدث فى يوليو سنة ١٩٥٢ .

وهؤلاء الشباب كما تقول الرواية ايضا هم أبناء الثورة « الحقيقيون .. ولولاها لتشرد اكثرهم فى الأزقة والحوارى .. قد تند عنهم أصوات معارضة ولكنها لا تلبث أن تضيع فى الهدير الشامل » .

وذات يوم خلت مقاعد الشباب فى المقهى .. وقالت قرنفلة الراقصة القديمة صاحبة المقهى :

ـ لم يجيء أحد منهم .. ماذا جرى ؟!

ومضت أيام طويلة ثم عادت الوجوه الشابة الغائبة : « زينب دياب واسماعيل الشيخ وحلمى حمادة وبضعة نفر آخرين ، اما البقية فلم نر لها أثرا بعد ذلك » .

وهتفت زينب دياب :

ـ سالمة يا سلامة .. رحنا وجينا بالسلامة !.

وتردد فى المقهى لأول مرة اسم « خالد صفوان » .. « ولكن من هو خالد صفوان ؟.. محقق ؟! مدير سجن ؟!» وكان اسمه يتردد بين المعاناة والذهول .. وقالت قرنفلة :

ـ الاولاد عانوا كثيرا ..

ولكن الاولاد العائدين لا يتكلمون « نحن فى زمن القوى المجهولة ، وجواسيس الهواء ، وأشباح النهار ، وجعلت اتخيل وأتذكر .. تذكرت ملاعب الرومان ومحاكم التفتيش وملاحم العذاب ومعارك الغابات » .

وسارت الحياة فى المقهى بأصحابها زمنا .. ثم للمرة الثانية اختفى الشبان : « وقع المقدور مفاجأة وبلا سابق انذار كما حدث فى المرة الاولى » !.

وقال احد الكهول الجالسين فى المقهى بعد ان قطع ما كان فيه من حديث عن أدوية القلب :

ـ حتى انا ورغم البراءة والسن بت اخشى على نفسى !.

فقال آخر :

ـ ممكن أن يشك فى امرك رجال الثورة العرابية لا هذه الثورة !.

ان الرواية الصغيرة الحجم ـ الكرنك ـ هى اشد روايات نجيب محفوظ هولا حتى الآن ، مع انها اصغرها حجما ..

انها الرواية التى تفصح عن كل ما كان .. يجمجم به ويرمز له منذ عشرين عاما ..

الانسان والانسانة فى هذه الرواية يسحقان حتى النخاع ، ويفقد الشاب ما يجعله شابا ، وتفقد البنت كرامة روحها وجسدها فى مشاهد من الاهدار الجنونى ، تجعلك تتساءل : كيف يؤمن الانسان بنوعه الانسانى ؟. هل يستطيع الانسان بعد ان يتعرض لهذا ، بل بعد أن يراه مجرد رؤية ، بل بعد أن يقرأ عنه مجرد قراءة ، أن يقول : انى أومن بالانسان ؟!.

تقول زينب : « كنا نشعر بأننا أقوياء لا حد لقوتنا ، أما بعد الاعتقال فقد اضطرب شعورنا بالقوة ، وفقدنا الكثير من شجاعتنا وثقتنا فى أنفسنا وفى الايام ، واكتشفنا وجود قوة مخيفة تعمل فى استقلال كلى عن القانون والقيم الانسانية » .

المدهش أن « خالد صفوان » استدعى زينب بعد أن أفقدها العذاب ما أفقدها فوجدته هادئا أو أكثر هدوءا من المعتاد ، كأن لم يقع شىء ، وباقتضاب قال :

ـ لقد ثبتت براءتكم !.

ونظرت زينب اليه طويلا ، فجعل ينظر اليها بثبات ولا مبالاة ، ثم صاحت فى وجهه :

ـ ارايت ؟!

فأجاب بهدوء :

ـ انى أرى ما يمكن رؤيته !

فهتفت بحنق :

ـ ولكنى فقدت كل شىء !

قال :

ــ كلا .. كل شيء يمكن اصلاحه ، ونحن قادرون على كل شيء !.

فصرخت بجنون :

ــ لا أصدق ان ما يحدث هنا مما ترضى عنه الثورة !.

ثم تجيء بطبيعة الحال الهزيمة الفادحة فى ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وماذا يمكن أن يجيء بعد أن امسك بزمام الامور فى الظلام رجال امثال خالد صفوان !!

الموت وفقدان الآدمية والهتك والفتك بطريقة لا يمارسها ابناء الوطن فى أبناء وطنهم ، ثمرة مكتملة المرارة تسقطها على الرءوس وتعصرها فى الحلوق أيد سـوداء خفية يردد الناس أسماءها بين الشك واليقين ، كأنها من الشياطين.

لقد خرج شباب قهوة الكرنك بعد الهزيمة من المعتقل ، الا من قضى نحبه ، وعادوا الى كراسيهم وشايهم وقهوتهم ، ولكن بأى روح ؟! .. « اين أيام البراءة والحماسة .. أين ؟! » .

وكما تقول الرواية : « كانت الدنيا قد عبرت ذروة النكسة وافاقت من الذهول الاول ، فوجدت الميـدان مكتظا بالاشباح والاحاديث والشائعات والنكات . وانعقد الاجماع على اننا كنا نعيش أكبر أكذوبة فى حياتنا » .

ويسأل احد رواد المقهى صاحبا له :

ــ وهل شاركت فى هذا الاجماع ؟

ــ بكل قوة العذاب الذى يفتت مفاصلى ، تبخر ايمانى وفقدت كل شيء .

ــ أظنك اليوم جاوزت ذلك الموقف ؟!

ـ درجات ولا شك .. على الاقـــل فاننى حريص على تراث الثورة !.

هكذا اراد نجيب محفوظ لأبطال روايته !.

اراد لهم الا يتبخر كل شيء من حياتهم ، فهنا عمل عشرين عاما منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وينبغى الا تحملهم مرارة الثمرة التى ذاقوها على ان يقولوا بيأس وحقد كما قال أبو نواس قديما :

لا ازود الطير عن شجر
قد بلوت المـــر من ثمره

فان هذا الشجر هو بلادنا ، لا بلاد الاراذل السفلة الضاربين فى الظلام ، ولا بلاد اللصوص وتجار الرقيق ، ويجب أن نذود عنه جوارح الطير مهما أثقلتنا جراح قلوبنا ونفوسنا .

واذا كانت الاخطاء والخبائث قد تراكمت خلال هـذه المدة غير القصيرة فقد بقى الامل فى انقاذ الشـــعب آخر الأمر ، ولنترحم على كل من سقط أو أسقطوه فى الطريق.

وكيف يمكن انقاذ الشعب ؟! .. تجيب الرواية فى لهجة تقريرية :

- بالكفر بالاستبداد والديكتاتورية ..
- الكفر بالعنف الدموى .
- اطراد التقدم معتمدا على قيم الحرية والراى العام واحترام الانسان !.

ومن الظلام الشامل يمكن ـ بعدئذ ـ ان ينبعث نور باهر ، ويمكن ان تسرى الحياة فى كلمات كادت تموت ، مثل : الاشتراكية ، والحرية ، والكرامة ، والرخاء .

ويمكن ان يتحقق للحب النقاء والبراءة !. كما تقول الرواية .

توفيق الحكيم فى موقفين

كثرت الكتابات عن الاديب الكبير توفيق الحكيم بعد وفاته ، وتحدث النقاد عن مواقفه فى الادب والفن ، ولكن موقفين اثنين من مواقفه تخطتهما جميع الكتابات التى قرأناها حتى الآن ، هما موقفه من اللغة العربية ، وموقفه من الغناء والموسيقى العربية .

وبين لغة العرب وموسيقاهم وغنائهم ما لا خفاء به من الوشائج عند جميع دارسى الادب والموسيقى ، وحسبك ان أشهر كتاب فى الادب العربى اسمه « كتاب الاغانى ».

وفى كلية التربية الموسيقية بجامعة حلوان ، وفى الكونسرفاتوار ، وفى معهد الموسيقى العربية بالقاهرة يدرس الطلبة علمين متلازمين هما علم العروض الموسيقى وعلم العروض الشعرى ، ويتبحرون فى عروض الشعر كما كان يتبحر فيه طلبة الحلقات الازهرية وطلبة دار العلوم قديما .. وهذا ما يجعل طلبة هذه الكليات والمعاهد الموسيقية اعظم معرفة بعروض الخليل بن أحمد من طلبة كليات الآداب والازهر ودار العلوم فى الوقت الحاضر .

وقد عاينت ذلك بنفسى وانا أتابع المحاضرات التى تتلقاها ابنتى الطالبة بكلية التربية الموسيقية ، واشهد عملها فى ربط العروض الشعرى بالعروض الموسيقى ، وتدوين ذلك بحرف «النوتة الموسيقية» سطورا متتابعة.

ولا أظن أن كاتبا عربيا خلصت نيته فى حب اللغة

العربية ، يمكن أن تتطرق اليه اثارة من البغضاء للغناء العربى والموسيقى العربية ، فضلا عن ان يتطرف فى بغضائه فيجعلها كلاما مكتوبا منشورا ينضح استخفافا وزراية بميراثنا من ذلك الفن الجميل .

والقاعدة المطردة فى هذا الشأن هى ان من يكره اللغة العربية ، لابد أن يكره غناءها وموسيقاها .

وقد كان توفيق الحكيم — رحمه الله — ممن تنطبق عليهم هذه القاعدة ، فتنازعته كراهة اللغة العربية والموسيقى العربية دهرا طويلا ، واقام على نفووه منهما بغير تحفظ عشرات السنين ، وسجل ذلك فى كتبه واحاديثه بلا مواربة ولا تردد حتى العقد السابع من عمره المديد .

ولكنه لم يكن وحده فى موقفه من الموسيقى العربية بوجه خاص .. وقد تهتز هنا القاعدة المطردة التى ذكرناها آنفا ، من اجتماع الكراهة للغة والموسيقى معا ، فان بعض من ساء رايهم فى الموسيقى العربية ، لم يكونوا يسيئون الراى فى اللغة العربية ، الا فى شعرها أو فى عروضها الشعرى ، أو فى نحوها وصرفها .. مثلا .

اذكر أننى قدمت فى سنة ١٩٦٦ كتابا اسمه « الغناء العربى » الى سلسلة « كتاب الهلال » ليصدر عنها ، فرفضه رئيس تحرير هذه السلسلة حينذاك — وكان صديقا لنا وما زال — معللا رفضه بأن الموسيقى العربية ذات طبيعة متخلفة مناهضة للتقدم ، ولكن الاستاذ أحمد بهاء الدين ، وكان رئيسا لمجلس ادارة دار الهلال ، أمر بطبع الكتاب ونشره ، مع أن الاستاذ بهاء من محبى الموسيقى الاوروبية ، ولكنه لا يجد تعارضا بين حبها وحب

الغناء العربي والموسيقى العربية ، فلكل منهما كيان فنى قائم بذاته لا يلغى الكيان الآخر !.

ولعل صديقنا الذى حاول منع نشر كتابنا قبل عشرين عاما ، قد عدل الآن عن بعض آرائه القديمة فى مسائل الادب والفن ، ومن بينها مسالة الموسيقى العربية !.

لقد جار الزمان على الغناء العربى والموسيقى العربية حتى أوشك أن يمحوهما منذ سقوط بغداد فى القرن الثانى عشر الى عصر النهضة العربية فى القرن التاسع عشر ، أى خلال سبعمائة سنة .. ولكن هذا الفن العربى دبت فيه الحياة كما دبت فى الشعر العربى فى منتصف القرن التاسع عشر ، فكان الملحن المغني الشيخ محمد المسلوب ثم الملحن المطرب عبده الحامولى — وهما رائدا نهضة فن الغناء العربى المتقن — معاصرين للشاعر محمود سامي البارودى باشا باعث الشعر العربى المتقن فى ذلك العصر الذى بدأ فيه انبعاث الحياة فى جميع المجالات .

ثم تتابع سيد درويش والقصبجى وزكريا احمد وعبد الوهاب والسنباطى ، وصوت أم كلثوم — الذى لعب دورا أساسيا — فاكتملت نهضة الغناء والموسيقى ، وانفتح الباب على مصراعيه لاقامة صرح جديد مستقل للموسيقى العربية غير قائم على التقليد الحرفى الأعمى للموسيقى الاوروبية « العالمية » لان السمات القومية فى الغناء والموسيقى لا يمكن الغاؤها بمرسوم ، ولا يوجد فى عالمنا شيء « عالمى » بالمعنى الفضفاض الساذج الذى يتصوره — أو كان يتصوره — بعضهم لهذه الكلمة التى استبدت بالافهام زمنا طويلا .

ان الخصائص القومية التى تصنعها عوامل التاريخ العميقة تتأصل راسخة فى الوجدان والادب والفن ولسوف

تصبح الموسيقى العربية « عالمية » عندما يصبح للعرب كلمة فى العالم ، لان من تسمع الدنيا كلمته : تسمع موسيقاه !.

هذه باختصار شديد قضية الغناء والموسيقى العربية ، وهى بعينها قضية اللغة العربية ، والادب العربى ، فلن يظفر أديب عربى بسمعة دولية ، ولن ينال جائزة عالمية ، ما دامت الامة التى يكتب بلغتها قد تراجعت عن الشأو البعيد الذي كانت قد بلغته فى سالف الزمان .

ومن أسف ان توفيق الحكيم ـ رحمه الله ـ لم يسنح له أن يقف حيال اللغة العربية والموسيقى العربية موقفا صحيحا ، ولم يتقرب من هذا الموقف الصحيح الا فى اخريات حياته .

ففى كتابه القديم « زهرة العمر » قال : « انك لن تجد مستنيرا فى مصر لا يقول لك أن اللغة العربية ـ مع الاسف ـ قاصرة عن التعبير فى شتى ضروب العلوم والفلسفة والتفكير العالى ، بل منهم من يقول انها ليست لغة تفكير، انما هى لغة بهرج وتنميق » .

ان توفيق الحكيم يذكر ـ بهذه الصراحة ـ هذا الرأى الذى يصفه بانه رأى جميع المستنيرين فى مصر ، ولا يذكر كلمة واحدة فى تفنيده ، لانه هو نفسه واحد من هؤلاء النخبة « المستنيرين » الذين يذكرهم ويحاول التهويل بكثرة عددهم وقوة اجماعهم على « رأيهم » .. كانه يحتمى بهم ويتوارى خلفهم ، ثم يتبرأ منهم عند الضرورة !.

لم يكن توفيق الحكيم يتظاهر بعداوة اللغة العربية ، لفتا للأنظار كما فعل عندما نادى بنفسه عدوا للمرأة ،

وانما كان صادقا فى موقفه ، مقتنعا بأن الحق كله فى جانبه .

ولكن يشفع له انه قال هذا الكلام فى شبابه وهو مبهور باوروبا ، لغة وموسيقى وأرضا وسماء وماء ، ورجالا ونساء .. ولم يكن فى تلك الايام على علم باللغة العربية ، حتى قال زميل صباه الدكتور حسين فوزى فى بعض احاديثه عنه انه ـ أى الحكيم ـ لم يكن يعرف اللغة العربية فى أول نشأته الادبية ، فلما وجد أنه يكتب بها ولابد له من معرفتها ، شمر لها وحشد عزيمته فى طلبها حتى استقام له بعد كفاح عنيف ، أن يكتب بها كتابة صحيحة ثم صار من كبار كتابها ، وعضوا فى مجمعها اللغوى .

ومعنى ذلك أن توفيق الحكيم لم يكن يتهم اللغة العربية بالقصور الا حين كان قاصرا هو نفسه عن التعبير بها لضعف معرفته بها .. ولعله لم يجد منها قصورا بعد أن عرفها ، عن الخوض فى العلوم والفنون والفلسفات وألوان « التفكير العالى » .. على حد تعبيره .. فقد حاول هو نفسه ان يخوض بلغته العربية الوان التفكير العالى التى يحدثنا عنها ، فلم تقصر اللغة ولكن ربما قصر التفكير احيانا .

مع ذلك ظلت آراء الحكيم فى اللغة العربية ثابتة فى طبعات كتبه المتوالية وقد طبع كتابه « زهرة العمر » الذى هاجم فيه اللغة العربية طبعة جديدة فى أخريات أيامه ، فلم يمس حرفا مما قاله عن اللغة العربية ـ وكان عضوا فى مجمعها ـ فلعله أبقى ذلك الرأى الخاطىء فى مكانه ، للذكرى والتاريخ !.

أما الغناء العربى ، فقد خصه توفيق الحكيم فى كتابه هذا ، فى طبعته الاخيرة ، بهذه الكلمات : « البارحة كنت فى القاهرة وحضرت حفلة غناء شرقية ، فرايت عجبا ! الحاضرين هم ولا شك من اهل القرن العشرين ،

ولكن الموسيقى هي من غير شك موسيقى القرن العاشر ».
ولا ندرى عن اى قرن عاشر يتحدث توفيق الحكيم !.
ان كان يقصد القرن العاشر الميلادى ، ففيه كان الاوروبيون لا يعرفون شيئا اسمه الموسيقى الا ما يلتقطه بعضهم من موسيقى الاندلس العربية ، وينقلونه نقلا محرفا شائها ، ولم يكن لاوروبا حرف واحد من موسيقاها الباذخة التى يشير اليها ضمنا فى كلمته هذه التى يسخر بها مما يسميه « الموسيقى الشرقية » .
واذن فالموسيقى التى كانت متخلفة فى القرن العاشر الميلادى ، هى الموسيقى الاوروبية ، بل كانت غير موجودة اصلا .

والقرن العاشر الميلادى يقابل عندنا نحن العرب القرن الرابع الهجرى ، وفيه كانت الموسيقى العربية قد بلغت الأوج ، وليت الاستاذ الحكيم ـ رحمه الله ـ كان قد سأل فى هذا الشأن علماء الموسيقى الاوروبيين انفسهم ، ولم يكتف بسؤال امثال صديقه الموسيقى الهاوى الدكتور حسين فوزى « المؤلف الحقيقى » لتلك الآراء التى لبث توفيق الحكيم يرددها زمنا طويلا .
ويبقى أن نقول أن الغناء « الشرقى » ـ كما يصفه الحكيم ـ ليس هو الغناء العربى ، وانما هو الغناء الهندى والصينى واليابانى والمغولى والافريقى ، وما الى هذه الالوان من الغناء غير الاوروبى .. وقد اعتاد الاوروبيون ـ لجهلهم فى هذا المضمار ـ أن يضعوا جميع الوان الغناء غير الاوروبى فى سلة واحدة ، ويطلقون عليها اسم « الغناء الشرقى » .
واحدة ، ويطلقون عليها اسم « الغناء الشرقى » .
وشتان بين الاصول الفنية الغناء العربى ، والاصول التى تقوم عليها الوان الغناء الشرقية الاخرى ، فان

الاختلاف بينها لا يقل عما بين أصول الغناء العربى وأصول الغناء الاوروبى من اختلاف كبير .

على أن توفيق الحكيم ـ رحمه الله ـ انما سمع لونا من الغناء العثمانى الذى كان يتردد فى بعض القصور والدور فى القاهرة الى ما بعد العشرينيات ، ولم يكن أصحاب هذا اللون من الغناء يعرفون شيئا من الغناء العربى المتقن ، ولكن توفيق الحكيم سارع فرمى فى وجه الغناء العربى بحكمه ذلك ، بلا تفرقه بين الغناء العربى والغناء « العثمانلى » .

على أن من حق توفيق الحكيم علينا ان نقول أنه راجع نفسه فى آخرياته ، فتغير بعض رأيه فى الغناء والموسيقى ، حتى ان آخر لقاء له مع تليفزيون القاهرة كان اشبه باعترافات يصحح بها مواقفه فى هذا الشأن وفى غيره من الشئون ، فامتدح « الطرب » فى غنائنا وقال أنه ميزة ينفرد بها ولا يعرفها الغناء الاوروبى ، واننا يجب أن نتمسك بها ، لا ان نهجرها كماكان هو نفسه ينادى بهجرها فى شبابه !.

ومع ذلك بقيت آراؤه فى الغناء والموسيقى جزئية وبلا عمق ، ولا تدل على علم غير عادى ، أو ذوق يعلو على الأذواق ..

وحكاية توفيق الحكيم فى الغناء والموسيقى ـ كحكايته مع اللغة ـ فرع من حكاياته الطويلة مع الفن والادب ، تعبر عن شخصيته القلقة السريعة التحول ، الآخذة بالجديد عندما ترتفع موجته ، النافضة يدها من كل ما لا يجلب الصيت والاضواء من قريب أو بعيد .

وتوفيق الحكيم بما كتب وعاش وخاض من غمرات الفن والادب والحياة .. كان شخصية فريدة بلا مراء ، تختلف فيها الاراء ، ولكنها تتفق على تفردها وامتيازها واستحقاقها للبقاء ، بين الخالدين من الفنانين والمفكرين والحكماء !.

فتحي رضوان
وفصل واحد

لولا الكاتب الكبير فتحي رضـــوان من جيل نجيب محفوظ لقلنا أن عدوى موضة الحوار القصصي قد أصابته، لان كتابه الجديد الذى سماه « مومس تؤلف كتابا » هو مجموعة حواريات قصصية ، وان كانت مسماة مسرحيات ذات فصل واحد .

يضم الـكتاب عدة مسرحيات قصــيرة او حواريات قصصية ـ سمها كما تشاء ـ تتجه كلها الى تقد اركان خاصة من المجتمع ، من بينها مثلا ركن رجال الاعمال الاثرياء ، او المغامرين المفلسين على حواشي الاعمال الجالبة للثراء الواسع ..

وفى المسرحية الاولى « مومس تؤلف كتابا » التى سميت المجموعة باسمها ، يقدم فتحى رضوان تصورا خاصا للمرأة الصالحة وللمراة الســوء ، وللــرجل الطيب وللرجل الخبيث !.

وكأنى أرى فى عنوان هذه المسرحية شيئا من المبالغة ، فالمومس كلمة ذات معنى خاص عند القارىء العربى ، وقد تغير معنى هذه الكلمة أو « تطور » بمرور الزمن واختلاف العلاقات الاجتماعية .. وليست المومس بمعناها القديم الذى تتحدث عنه مسرحيــة فتحى رضوان هى غانيــة اليوم ، او حتى غانية الامس القريب . كما ان الرجال

الذين يخشون ان تؤلف الغانية عنهم كتابا لا وجود لهم الآن بالصورة التى نفهمها من المسرحية .

وتبدو هذه المومس او هذه الغانية اشبه براقصات الثلاثينات على عهد بديعة مصابنى ، اذ كان الباشوات والاعيان والعمد وأبناء البيوتات لا يجدون حولهم الا الراقصات الاجنبيات والمحليات والمتمصرات ، ومن اليهن ممن تفرغن لهذه الامور وفتحن بيوتا تعيش على كرم أولئك الاثرياء وأريحيتهم وتقديرهم الخاص لما يستمتعون به ..

تحاول المسرحية ان تقول أن العلية والخاصة تلذ لهم نزواتهم ولكن افتضاحها لا يلذ لهم بطبيعة الحال ، فيحاولون منعه ولو بذلوا الجزيل من أموالهم . وهذا صحيح فى كل مجتمع ، من مجتمع الغانية كريستين كيلر فى بريطانيا المعاصرة الى مجتمع غادة الكاميليا فى فرنسا القرن التاسع عشر شرقا وغربا فى عصور اسواق الرقيق !.

المهم أن تفصح المسرحية عن عصرها وتنم عنه وتتكلم بلسانه .. وهذا ما يحاول قارىء « مومس تؤلف كتابا » ان يتبينه من خلال الحوار البارع السخى الذى جاد به قلم هذا الاديب العريق فى الادب والفكر .

يوسف ادريس مع الثيران

.. هذه القصة لو تحولت الى فيلم ضخم بالالوان لاثارت العالم كله ضد مصارعة الثيران (١) .

لو استطاعت السينما ان تجسم المشاعر والعواطف والانفعالات كما جسمها يوسف ادريس فى قصته ، لاهتزت أعماق الانسان فى كل مكان ، للمأساة الدامية التى يمثلها القاتل والمقتول فى « الارينا » .. أو ساحة مصارعة الثيران !.

ولكن قصة يوسف ادريس لن تظهر على الشاشة بالالوان ، ولا بغير الالوان ، لانها قصة فاضحة .. تفضح « اللعبة » التى يحج اليها ألوف « السياح » مزودين بالدولار والاسترلينى والمارك والفرنك .. فتتكدس العملات الصعبة فى بنوك اسبانيا ، ويبقى الشعب هناك فقيرا ، بل أفقر شعوب أوربا ، طبقا لاحصاءات الامم المتحدة .

ويوسف ادريس لم يفضح لعبة الرجال والثيران بالخطب والمواعظ وبمناشدة الانسان أن يكف عن قتل الحيوان والتمثيل به .

ولكنه عرض اللعبة عارية من جميع ملابسها المزركشة ، واعلامها الملونة .. من خلال قصة انسانية غاية فى البساطة ، غاية فى الدقة والصعوبة والجمال .

---

(١) قصة رجال وثيران ليوسف ادريس من اعماله فى الستينات ولم تظهر فى السينما

انه استطاع بنعومة القصصي الموهوب المدرب أن يلتقط من زحام « الارينا » وجها شاحبا غامضا ، هو بالذات وجه مصارع ثيران ناجح تصفق له ستون ألف كف ، وترشقه اجمل النساء بالازهار ، وتهتف له عشرات الآلاف من الحناجر بهتاف ساحة المصارعة التقليدى : « أوليه » .. الكلمة التى حرفها الاسبان عن كلمة « الله » ! .

وانتصر الوجه الشاحب فى ساحة المصارعة .. توالت انتصاراته .. ثم .. فى النهاية .. واجه الثور الذى لا يريد أن يموت قبل أن يأخذ بثأره من قاتله .

وهكذا سقط المصارع تحت القرنين الرهيبين .. ورآه الثور مضرجا بدمائه قبل أن يتهاوى هو بدوره ويسقط ذبيحا مسفوح الدم ، حتى آخر قطرة !.

والناس الذين يسيحون فىالعالم طلبا للمتعة والاثارة ، يذهبون الى ساحة مصارعة الثيران ، لا ليشاهدوا الرجل وهو يقتل الثور .. « انها كذبة .. كذبة .. انهم يأتون على امل أن يقتل الثور المتوحش الرجل ذا السيف .. وحبذا لو حدث القتل امامهم .. انهم لا يجاهرون برغبة كهذه ، لانها تبدو شاذة كريهة غير لائقة بالرجل المتحضر ، ولكنها الرغبة الكامنة فى صدورهم » .

هكذا قال احد مصارعى الثيران الذين تقاعدوا بعد كفاح طويل ضد الثيران .. هكذا قال ليوسف ادريس فى حوار بديع دار بينهما بعد سقوط المصارع ذى الوجه الشاحب تحت قرنى الثور .

ويستطرد الرجل قائلا : « نحن نعرف هذا ، وأصحاب الفنادق يعرفون هذا ، وشركة كوك تعرف هذا ،

ومصلحة السياحة تعرف هذا ، والبنوك والحكومة والكنيسة تعرف هذا .. كلها تعرف أن كذا رجلا سيقتلون فى هذا الموسم كذا ثورا ، وان كذا ثورا ستقتل على وجه التقريب كذا رجلا .. ولا أحد أبدا يفعل شيئا لمنع هذا القتل .. بالعكس .. انها تتعاون وتتسابق لكى يتم القتل على اكمل صورة » .

هكذا تدور الامور فى ساحة مصارعة الثيران «الارينا» وخارجها .

العملة الصعبة تتدفق فى الخزائن ، والثيران تتلقى طعنات السيوف ، والمصارعون يسمعون الهتافات أو يسقطون تحت قرون الثيران .. والمحتشدون على مدرجات « الارينا » يجأرون كانسان الغابة ، فى انتظار ان يشاهدوا قرون الثور ناشبة فى صدر الرجل .. هذه هى رغبتهم الحقيقية التى دفعوا من أجلها نقودهم ..

والذين لا يعرفون أسرار اللعبة يتصورون أن مصارعى الثيران ، هم بالفعل كما تصورهم الافلام الملونة الضخمة، يعيشون فى عالم من السيارات الفاخرة والسهرات والقصور والنساء الجميلات .

الحقيقة تفجع من يتصورون الامور على هذا النحو البراق .. لقد رأى يوسف ادريس مجموعة المصارعين على حقيقتهم بعد انتهاء الصراع فى « الارينا » .. « فجعت وأنا أرى سيارتين من سيارات التاكسى وقفتا أمام الارينا وشحن فيها المصارعون وصبيانهم .. كل ستة فى عربة » !.

الاقلام الملونة الضخمة تطمس الحقيقة اذن ، ولا تقول

ان مصارعي الثيران مساكين كالثيران التي يذبحونهـا بسيوفهم !.

من العسير أن أعطيك تلخيصا لقصة « رجال وثيران » التي استوحاها يوسف ادريس من « الارينا » الاسبانية، تلك الساحة « الصامتة الكئيبة المليئة بالخزى والتقيح والندم والاشمئزاز » .

يكفى القول بأن يوسف ادريس سجل بها تفوقا على نفسه وعلى الاخرين من جيله !.

يوسف ادريس والنداهة

فى « النداهة » .. المجموعة القصصية التى اتحفنا بها يوسف ادريس اخيرا ، يشم الرجال والنساء ـ ولابد ـ رائحة الجنس النفاذة منذ النظرة الاولى الخاطفة ، بل قبل ان يستكملوا خطف النظرة الاولى من هذه المجموعة القصصية البارعة الجمال ، لان الجنس فيها لا خفاء به ولا حجاب عليه ولا اعتذار منه . فهو الارض والاعمدة والجدران والسقف فى هذا البناء القصصى الذى ينهض فوق هندسة فنية لامعة .

ولكن الجنس هنا ليس هو الجنس الفطرى هائما عاريا يصرخ فى الغابة القديمة ، وانما هو الجنس بعد مليون سنة من تطور الانسانية ، وقد اصبح خادما مخلصا فى بلاط صاحبة الجلالة « الحياة » .. اى أنه الجنس الفطرى ذاته ولكن فى صورة غير بدائية وهدف غير بدائى ، لانه يخدم تطور الحياة البشرية ، وارتقاء الانسانين : الذكر والانثى !.

وفى قصة « النداهة » التى سميت المجموعة باسمها ، يرسم يوسف ادريس لوحة تمسك بأحداق عيون القراء والقارئات : « كانت فتحية راقدة على ارض الغرفة والولد الصغير ملتصق براسها العارى ينتحب مرعوبا وهو يجذب شعرها بشدة بينما هى عارية الراس ، عارية الساقين والفخذين ، عارية كلها أو تكاد ، وفوقها

يرقد أفندى بجاكتة وبلا بنطلون او سروال وانما مؤخرته العارية قد ذابت فى عرى فتحية وانتهى الامر » .
فتحية هذه قروية شبه حسناء ، جاءت الى المدينة برغم ارادتها ، تدفعها سطور مكتوبة على جبينها ، وترسم مصيرها أقدار غامضة كتبت أن هذه القروية البريئة ستزل كارهة مرغمة تحت اغراء رجال المدينة ذوى المكر والدهاء .

وعندما زلت فعلا وفوجىء بها زوجها فى هذا المشهد الذى نقلناه اليك كما كتبه يوسف ادريس بالضبط هان عليها الزلل فواصلته وعاشت فيه !.

وفى قصة « مسحوق الهمس » يمتد حريق الجنس الى أفكار شاب سجين فى زنزانة انفرادية ، فيصور له خياله امرأة سجينة فى الزنزانة الملاصقة له : « لدى ذكر النساء وعالمهن واستحضار المرأة فى ذهنى تتدفق غريزة وحشية مكتسحة كأمطار الصيف فوق خط الاستواء ، تنهال على سطح البحيرة الآسن الراكد البليد .. مجرد وقع الكلمات على الاذن .. النساء ذلك التضاد القاهر المكهرب معك ، الذى تحن اليه وترغبه وتريده كما تريد الحياة نفسها .. مجرد تصورك لاجسادهن المختلفة ، لانبعاجاتها المثيرة ، للابسهن ، حتى ملابس السجن الواسعة ، روائحهن الخاصة ، دائما كبصمات الاصابع .. المرأة الصدر الحنون والقلب الرحيم والكلمة الحلوة والافخاذ التى يفقد بينها الرجل صوابه » .

هذا الكيان الانثوى الماثل بجبروته الغريزى فى خيال السجين المحروم يفضى فى النهاية الى لقاء مثير — فى الخيال — بينه وبين فاتنته السجينة فى الزنزانة المجاورة ، والتى هى فى الحقيقة لا وجود لها !.

وفى قصة « العملية الكبرى » تختلط روعة فن القصة القصيرة بروعة انهيار السدود والحدود بين الجنس والموت .. تحت سقف واحد فى المستشفى تعمل الحياة عمليها المتناقضين المجيبين : الجنس والموت .. كلاهما من عمل الحياة وباب اليها .

● هكذا ، كل قصص المجموعة : النداهة واخواتها ، جنس يتعرى فى السطور ويرقد بصراحة الصراحة امام الانظار ، ويقول كل شىء .. ليس هناك « عيب » فى الادب والفن ، كما انه لا حياء فى الدين طبقا للحديث النبوى المأثور .

وفى العالم الآن ، تضغط على الفن والادب موجة « الجنس للجنس » .. اذا صح التعبير ، وترفع « البورنوجرافية » الحديثة أو « الآداب الفاضحة » راياتها خفاقة فى سماء أمريكا وغرب اوربا ، حيث يتخذون من الجنس مادة الهامهم ، على اختلافهم فى صياغة هذه المادة .. والفن والادب وسيطان نشيطان يوفقان بين الرءوس بقوة قاهرة فوق الرءوس وفوق الفن والادب ، والى مدى فاق كل ما عرفته الآداب الفاضحة منذ اليونان والرومان الاقدمين !.

وأدباؤنا ـ وبينهم يوسف ادريس ـ مضغوطون بهذه الموجة العنيفة ، فهم أبناء عصرهم ، ولكن الكثيرين من ادبائنا هؤلاء قاوموا شعار « الجنس للجنس » ومضمونه الاجتماعى والسياسى والحضارى ، واستبدلوا به شعار « الجنس للحياة » !.

وشعار « الجنس للحياة » لا هزل فيه ولا تلاعب بالالفاظ ولا سخرية فى ضم هاتين الكلمتين احداهما الى

الاخرى ، فشأن الجنس فى الحياة لا يحتاج الى بيان ، ولكنه يستخدم ضد تقدم الحياة فى أدب المجتمعات الراسمالية والاستعمارية الآن . ولا ينبغى أن نتجاهل أن الناطقون بفلسفة وآراء الاستعمار والصهيونية والقوى الرجعية والشريرة الاخرى ، يحاولون ان يضموا سلاح الجنس الى ترسانة اسلحتهم التى تهدد مصير النوع الانسانى كله .

ومنتجو القصص والافلام والمسرحيات والاعمال الادبية والفنية التى تجرى هذا المجرى فى تلك المجتمعات يتعمدون فى أكثر الاحيان أن يهزموا روح الانسان ويجردوه من المقدرة على امتلاك الواقع ، ويلفظوه يائسا عاجزا نافضا يديه من الكفاح ، مشدوها بما شرب من تلك الكئوس !.

فهل التقى يوسف ادريس فى النداهة ، او غيرها من اعماله القصصية الممتازة بتيار « الجنس للجنس » الذى يكتسح غرب اوربا وامريكا ؟!.

الحقيقة أنه لم يلتق بهذا التيار ولم يركب موجته ، بل قاومه وافترق عنه . وقد فعل ذلك سائر الادباء والفنانين التقدميين والانسانيين فى مصر والبلاد العربية والعالم كله . اذ ردوا على نداء « الجنس للجنس » بنوع جديد من الكتابة حول الجنس يبطل أثر ذلك النداء ويقوض أسسه الفكرية ويجرده من عوامل اغرائه وانتشاره . فكتابتهم حول الجنس تخدم المضمون الواقعى والانسانى كما تخدم المعمار الفنى للقصة او الآثار الادبية الاخرى ، ولا تنزلق فى منحدر الجنس المكشوف المريض المشبوه الاهداف .. وقد حقق ادباؤنا هؤلاء هذا الهدف الدقيق بدون أن ينسجوا حول الجنس الطلاسم والاساطير

والمخاوف البدائية والنواهى والزواجر وكل ما يمت الى فكرة « الخطيئة » أو فكرة « الرجل » بصـــلب قريب أو بعيد !.

اريد أن أقول أن الكتابة فى أدبنا الحديث عن الجنس هى فى الحقيقة عدوى فكرية من مجتمعـــــات أجنبية . ونحن قوم كنا مغلوبين وكانت تلك المجتمعات هى الغالبة ، ومازال لها بعض الغلبة علينا ، والمغلوب مولع بتقليـــــد الغالب كما هو معروف منذ الزمان الاول . ولكن هـــذه العدوى الفكرية مستنا اخيرا وقد كدنا نتحرر فلانت فينا مقاومة فكرية ونقدا وتمحيصا ، وانفجر تيار فكرى عربى معاكس اتاح لطلائع مثقفينا ان يفتحوا عيونهم على مشكلات الجنس بدون أن يصنعوا منها بضاعة استهلاكية لعقولنا وارواحنا .

ولم تكن هذه شوفينية ادبيـــة ولا تعصبا فـــكريا أو انغلاقا ثقافيا بأى حال ، فالادب ســلاح أيديولوجى فى أيدينا لا يصح ان نلقيه ونتخلى عنه وليس حتما أن يكون أدبنا امتدادا ساذجا وتقليدا « طبق الاصل » لما ياتى من وراء حدودنا .

ومن حق الادب العربى أن يتخذ موقفا مضادا لكـــل حصان طروادة جديد يتسلل أو يحاول أن يتســـــلل الى عقولنا ونفوسنا . وليس يصح فى الاذهان أن نفتح المظلة فوق رءوسنا كلما أمطرت السماء فى أوربا الغربية أو امريكا مثلا .. وليس معنى هذا ان للجنس نظاما شرقيا ونظاما غربيا لا يلتقيان ، فكـــل عصر ينظم الجنس على مقتضى احواله . وما يجرى الان فى « السويد » مثلا ليس رجسا ولكن الرجس هو اغراق الجنس بتهاويل الادب والفن ومؤثراتهما التجـارية والسياسية والاجتماعيــة المشبوهة .

● على هذا الدرب سار يوسف ادريس فى مجموعة « النداهة » بلا خطابة ولا تشنج ولا سطحية ولا ركاكة فى التفكير ، وناقش التناقض بين القرية والمدينة ، وبين الفلاحين المعدمين وأضواء المدينة الكبيرة ، بأسلوب فلاح مصرى يكتب عن رجال ونساء من قريته اعتصرتهم ظروف طاحنة لا فكاك لهم منها كأنها أقدار غامضة نافذة الامر ، تنده وتنادى ضحاياها الى مصيرهم !.

ولكن الاقدار هنا ليست الا رمز مأساتهم ، أما مأساتهم الحقيقية التى تنتحل اسم القدر فما هى الا الشروط المادية والروحية لحياتهم ، وما هى الا علاقاتهم بالقوى المختلفة التى تتواضع امامها قواهم المحدودة .

وكشف يوسف ادريس الاعماق التراجيدية ـ حتى من خلال الفكاهة ـ للمحن والمشكلات التى يعانيها سجين الزنزانة ، وسجينة الكهولة والتقاليد العنجهية الريفية البلهاء .. ومجموعة اخرى من اسرى العلم والاستاذية وضحايا الجنس والموت والحياة !.

وفى أطنابه الفنى البديع انتزع يوسف ادريس اللاوعى من ظلماته فجلاه كأنه الوعى ، وحاكمه الى الواقع وامتحن الواقع به ، فى ايقاع سريع واضح يعلو جواب نغمته الى طبقة يحتدم فيها صوت المتناقضات المتصادمة ، ثم يسفر عن رؤية واضحة للحقيقة .

وفى هذا كله ، مرت أمام عيوننا الوان وصور من العرى الجنسى .. نعم .. لكنه عرى الواقع والمأساة ، لا عرى الاثارة .. عرى يخدم المضمون الانسانى التقدمى ، كأنما يوسف ادريس فى هذا المجال ـ مع فوارق فنية وفكرية لابد منها ـ هو مكسيم جوركى فى قصة « العاهرة » الشهيرة .. حيث يتعرى الجسد ويتغطى به ماء وجه الحياة !.

مصطفى محمود
فى عالم الأرواح

هل نرى الدنيا على حقيقتها ؟. هل السماء زرقاء والحقول خضراء ، والرمال صفراء .. والعسل حلو والعلقم مر .. والزجاج شفاف والجدران صماء ؟. لا .. ليست هذه هى الحقيقة . فما هى اذن ؟.

الحقيقة يبحث عنها مصطفى محمود وراء اينشتين ونظرية النسبية .

ومع ذلك فالكتاب الذى ألفه مصطفى محمود عن هذه المسألة ليس كتابا علميا ، بل خواطر فنان متصوف أدهشه ما يكتشفه العلم فى الكون يوما بعد يوم ، كما أدهشه الكون نفسه ، بأرضه وفضائه ونجومه .

ودهشة مصطفى محمود لاكتشافات اينشتين ، ليست الا امتدادا طبيعيا للدهشة التى أطبقت عليه وهو يتأمل الكون ، قبل أن يقرأ شيئا عن اينشتين .

ولا شىء أكثر من الدهشة الفنية ، والانبهار الروحى فى كتاب مصطفى محمود عن اينشتين والنسبية .. ان كتابه يعكس نظرته الفنية الى الحقائق العلمية .. نظرته التجريدية المفعمة بالحيرة .

والحقائق العلمية تتحول بين يديه الى فن .. ربما لا تكون فنا متكاملا بشكله ومضمونه ، ولكنه فى على أية حال ، وليس له وصف آخر .

انه ليس فلسفة ، لان الفلسفة هى البناء العلوى للعلم .. انها البرج الراسخ الذى يطل العقل من فوقه الى العلم ، بل الى الحياة والمجتمع والكون بوجه عام .

ومصطفى محمود لم يصعد فى كتابه ، فوق برج يطل منه على الحقائق العلمية ، بل رفع راسه الى فوق ، وتامل بعينيه طويلا ما يجرى وراء السحاب .

ماذا راى ؟!

راى أن المادة ليست كما كان الناس يتصورونها قديما ، مجرد أجسام كثيفة .. لقد انهار كل تعريف قديم للمادة ، وانهار كل راى جديد اقامه أصحابه على ان المادة ذات وجود حقيقى ثابت .. فكل شىء فى العالم « المادى » يبدو للعيون فى صورة غير حقيقية ، لان كل تحليل جديد له يعطى العيون صورة أخرى له .. حتى يبدو الحجر الصلد فى النهاية أشبه بالهباء !.

لقد سقطت المادة .. العالم غير مادى .. الحقيقة غير موجودة .. الانسان لا يعرف شيئا فى هذا الكون !.

المادة ـ كما يقول مصطفى محمود ـ « هى قمقم سليمان ، فيه عفريت .. واينشتين هو الذى أطلق تعزيمة الرموز والطلاسم الجبرية ، فانفتح القمقم وخرج العفريت .. المادة ليست مادة .. انها حركة .. ما الفرق بين أن نقول ذلك ، وبين أن نقول انها روح ؟ » .

ولماذا نقول انها روح ؟!.

« لان الروح تعبير صوفى ، نقصد به الفاعلية الخالصة التى بلا جسد .. والمادة اتضح انها فاعلية خالصة .. حركة .. وان جسمها الملموس وهم من أوهام الحواس » .. هكذا يقول مصطفى محمود .

على الصعيد الفلسفي يبدو هذا الكلام مشتقا من نظرات فلسفية قديمة .. فليس جديدا أن يقال ان العالم روح كبير ، ولسنا فيه الا موجودات غير موجودة فعلا .

ولكن مصطفى محمود فى الحقيقة لا يقصد أن يتفلسف .. انه يتأمل فقط .. يمسك شعرة من ذيل الفيل ويقول لنفسه : هذا هو الفيل .

انه فى بحثه عن حقيقة المادة ، الغاها ، وقرر استنادا الى اينشتين أنه لا وجود لها .

ولماذا لا وجود لها ؟.

لانها لا تثبت على شكل واحد ، وصفة واحدة ، وكيان أصم لا يتحول !.

ومصطفى محمود — فى كتابه — هدم المادة فعلا .. ولكن أية مادة ؟.

انها المادة كما تصورها القدماء .. الجسم الكثيف الاصم الذى تصوره الناس فى الماضى .. اما المادة الحديثة كما يراها الماديون الآن ، فليس لها تعريف مقدس ثابت .. ان تعريفها الوحيد بالنسبة للانسان ، يتمثل فى أنها قائمة فعلا خارج فكر الانسان .. انها الشىء الذى يواجهه عقل الانسان ويبحث فيه ، ويكتشف اسراره بلا انقطاع ، ولا يقف فى ذلك عند حقيقة مطلقة ، لان كل حقيقة نسبية تقود الانسان الى حقيقة تالية .

وعلى هذا الاساس لا يكون أدنى تناقض بين عالم المادة وبين العلوم التى انبثقت منها القنبلة الذرية .

فالمادة القديمة المبتذلة ، هى وحدها التى سقطت .. وقد سقطت منذ زمن بعيد ، لا منذ انفجار قنبلة هيروشيما فقط .

إن كتاب مصطفى محمود عن اينشتين والنسبية ، لا يعكس حيرة فلسفية فقط .. انه يعكس ايضا حيرة اجتماعية .. فان وضوح طريق الانسان فى الجماعة الانسانية يقوده الى الوضوح الفلسفى .

ومصطفى محمود يعانى حيرة قديمة ، منذ عشرين عاما او أكثر .. منذ بدأ يقرأ الكتب فى عزلته ، الى أن أصبحت الكتب عالمه الذى يسبح فيه ، مديرا ظهره للعالم الذى يعيش فيه .

ومن هذه العزلة انبثقت فردية مصطفى محمود التى ما زالت تقوده الى مواقفه حيال كل شىء (١) .

الا أن هذه الفردية المنعزلة المتصوفة ، تنتج دائما فنا ممتعا .. حتى عندما تقرر ان الكون موجود ، ولكنه غير موجود .

وكتاب مصطفى محمود عن اينشتين والنسبية ، هو فن خالص .. يخرجك الى عالم الارواح ، بينما تظن نفسك فى عالم المادة !.

---

(١) هذا الكتاب يعبر عن آراء مصطفى محمود فى الستينات وكذلك كتبه التى تحدثنا عنها فى الصفحات التالية .

... فى الغابة

حياة الغابة على حقيقتها وبساطتها تجدها عند هذه القبائل التى تسكن أدغال تنجانيقا وكينيا .. عند الماساى .. الماكامبا .. الماوماو .. وهى شىء آخر غير حياة طرزان وروبنصن كروزو والسندباد .. هكذا يقول مصطفى محمود فى كتابه « الغابة » :

ولأمر ما طار مصطفى محمود من قلب القاهرة المدينة المتألقة الى غابات افريقيا المظلمة ..

المدينة ــ فى رأيه ــ شىء خانق لزج .. الناس يتبادلون الاشاعات ويتعاطون الاقراص المنومة .. الامراض تسحقهم : القرحة .. السكر .. الذبحة .. وكلها أمراض لها اسم واحد حقيقى : المدينة !.

ومصطفى محمود حين طار الى غابات أفريقيا ، كان يشعر بأنه مريض بداء مزمن اسمه « المدينة » .

وكما قال .. كان امله الوحيد فى الشفاء ، هو الغابة بعيدا عن الشىء الخانق اللزج الذى يتعاطى الناس فيه أقراصا ليناموا ..

ليس غريبا أن يفعل مصطفى محمود ذلك .. ففى اعماقه متصوف مذعور من المدينة .. من التطور لا يتوقف أبدا .. من الحقائق تتلاحق فى سرعة مذهلة كاشفة القناع عن وجه الكون والمجتمع .

وفى الغابة يستطيع مصطفى محمود ان يسترد انفاسه، ويخفى نفسه فى ظلام الاشجار الضخمة المتعانقة ، ثم يلقى من مكمنه الحصين نظرة على الحياة والكون ، يحاول بها أن يفهم المدينة ويفهم الغابة ، ويفهم الارض التى تقلهما ، والسماء التى تظلهما ..

هل يمكن أن يقف الانسان موقفا فرديا من المدينة ، أى من الحضارة التى صنعتها اعمال الجموع البشرية خلال الدهور المتعاقبة ؟.

طبعا .. هناك مواقف فردية حيال جميع القضايا والمشكلات ..

ويستطيع الفرد ان يرفض الحضارة ويلجأ الى الغابة أو الى الصحراء .

ولكنه لن يغير بموقفه هذا ذرة من الآلام النفسية والعقلية التى طردته من المدينة الى الغابة أو الصحراء.

فالمدينة هى التطور الاجتماعى .. هى ثمرة اعمال الناس جميعا ، ومن بينهم الناس الذين لا يسكنون المدينة ، بل يسكنون الريف والصحراء والغابة والمجاهل السحيقة .

والمدينة ليست شيئا ثابتا ، تحكمه « مواصفات » ازلية ، لان المدينة ظهرت بعد الصحراء وبعد الغابة .. وهى تتطور بلا انقطاع ، فبغداد القديمة ، فى عصر الرشيد والمأمون ، كانت مدينة ، وبغداد الان مدينة ايضا ..

ومن بغداد القديمة هرب زهاد ومتصوفة كثيرون ازعجتهم حضارة العباسيين .. فهل معنى هذا أن يهرب

من بغداد الجديدة جماعة الزهاد والمتصوفين ايضا ، لنفس الاسباب التى أزعجت أسلافهم فىعصر العباسيين؟!

والمدينة الاقطاعية ، شيء لزج ، وكذلك المدينة الراسمالية .

فهل معنى هذا أن نيويورك الراسمالية مدينة باذخة ، يصاب فيها بعض الناس بالجنون ، من هول ما يسحق أعصابهم .

فهل معنى هذا أن نيويورك الراسمالية قدر مقدور ، وقضاء أزلى لا يمكن الاحتجاج عليه ، ولا يمكن تغييره وتحويله الى شيء انسانى ؟!

لو كانت أية مدينة راسمالية أو اقطاعية هكذا ، لحق على الناس اليأس ، ولكان الهروب الى الغابة دواء نفسيا يمكن أن يتجرعوه !

ولكن الحقيقة ، ان علاج المدينة اللزجة التى تنام بالاقراص ، لا يكون بالهروب الى الغابة ، بل بالصمود فى المدينة واصلاحها من الداخل .

ان تحويل المدينة اللزجة الى مجتمع انسانى نظيف ، هو العبء الثقيل الذى يجب على الانسان المتمدن أن ينهض به .

والواضح فى كتاب مصطفى محمود أنه لم يفكر فى الغابة كمهرب دائم من المدينة .. فهو انسان متحضر ، على درجة عالية من فهم الحضارة وتطورها .. يؤمن بقدرة الانسان على تغيير العلاقات الاجتماعية الوحشية الى علاقات انسانية .

وهو ينقد المدن التى بناها الاستعمار الاوربى فى افريقيا نقدا ذكيا .. لا يفكر ابدا فى هدم هذه المدن التى يعشش فيها الاستغلال الاستعمارى ، وانما يفكر ــ فقط ــ فى غسل هذه المدن من أدرانها وتحويلها من أسواق تجارية

بشعة ، الى مجتمعات انسانية فاضلة .
ان مصطفى محمود افلاطون جديد يبحث عن مدينة فاضلة من نوع جديد .
في دار السلام بتنجانيقا وجد مصطفى محمود « التجارة في كل شبر وفى كل خطوة .. كل الناس في دار السلام تجار بشدة ، ليس لديهم وقت لصداقة أو عاطفة .. جرابيع وأفاقون ومغامرون ، وافدون من كل مكان فى الارض جريا وراء الصفقات ! . »
وعندما وصل الى « نيروبى » عاصمة كينيا وجدها مدينة عجيبة « كل شيء فيها مغسول مكنوس مصقول متألق .. الشوارع واسعة عريضة .. وفى حى الموز كل فيللا حولها فدان من الحدائق ، والانجليز لهم «سرايات» كسرايات عابدين والمنتزه ، وفى كل « سراية » حمام سباحة وحديقة حيوان وسينما وأكشاك من البامبو فوق فروع الشجر للاسترخاء والسرحان .
ومصطفى محمود يصف هذا الذى رآه فى نيروبى بانه « ثراء فاجر يرهق الاعصاب » .
وفى تجواله بين دار السلام وموزمبيق ونيروبى لم يجد الغابة ، بل وجد « التمدن الفاجر الباهر » !.
المسألة اذن ليست مسألة مدينة وغابة ، بل مسألة مدينة فاجرة باهرة ثرية ترهق الاعصاب !.
لقد حطم المستعمرون الاوربيون مساحات شاسعة من الغابات ليشيدوا مكانها مدنهم الافريقية الفاخرة .. ولم تستطع الغابة أن تقاوم فئوسهم .. فما معنى ذلك ؟!
معناه أن الهروب الى الغابة لا يجدى لان « المدينة » تطاردها وتزحف وراءها .
ومعناه ان الهرب الحقيقى من زيف المدينة وبشاعتها ، هو الصمود فى قلبها للاحتجاج عليها وتغييرها !!

... يقابل الشبح

كنت أتوقع ان يصل مصطفى محمود الى هذا المأزق الفكرى ، بعد أن قرأت كتابه « اينشتين والنسبية » .

ففى كتابه هذا كان مصطفى محمود يبحث عن الروح ، ويحاول ان يثبت لنفسه وللناس إن نظرية النسبية تفسر الحياة .والكون تفسيرا روحيا ، وأن الحقيقة لا وجود لها فى هذا العالم ، الا على شكل حقائق صغيرة عابرة ، لا تتألف منها أية حقيقة مادية .

وفى كتابه « العنكبوت » يمضى مصطفى محمود على دربه القديم .. يفسر الحياة والمجتمع والتاريخ والكون كله تفسيرا روحيا ، ويبحث عن الحقيقة ليثبت لنفسه وللناس انه لا توجد اى حقيقة فى هذا العالم .

وكتاب « العنكبوت » ليس بحثا فيما وراء الطبيعة فقط ، فان البحث وراء الطبيعة لا يرضى طموح مصطفى محمود الى اثبات الحقيقة أو الى نفى الحقيقة .. ولهذا يطل على ما وراء الطبيعة من نافذة العلم ، بل من نافذة معمل يدار وفق المعلومات الحديثة التى تعترف بها مجامع العلماء فى أوربا وامريكا ..

ولكن « العنكبوت »ليس بحثا علميا ،ولا فلسفةغيبية، ولا فلسفة مادية ، ولا قصة ، ولا أسطورة ، ولا مطاردة بوليسية ، ولا حلما مزعجا .

ان « العنكبوت » خليط من كل هذه الاشياء ذات

الوزن الثقيل .. فاذا كنت من هواة القصص البوليسية، فستجد متعة كبرى فى « العنكبوت » .. واذا كنت من هواة الاحلام المزعجة والاساطير ، فستنعم بلقاء شائق مع أكثر الاحلام ازعاجا ، واقوى الاساطير عنفا وغرابة .

واذا كنت تبحث عن شىء وراء الطبيعة ، فستلقاه ماثلا امامك فى كتاب « العنكبوت » .. واذا لم تلقه ، فستتخيله كأنك تراه ، لان مصطفى محمود يجسم امامك ما تطالعه حتى تكاد تلمسه بيديك ، وان كان لا وجود له الا فوق الورق .

واذا كنت تحب الحقائق العلمية والكيميائية ، وتطرب لأسماء المكنات الحديثة ، والاجهزة الدقيقة المستوردة من الخارج ، فستنعم معها بلحظات بديعة على صفحات العنكبوت !.

واذا كنت تشتهى أفلام الرعب ، وتحب أن ترى جسدك يرتعد خوفا ، وحواسك كلها متوقفة عن العمل ، فاذهب مع الدكتور داود الى المقابر لتراه يسرق رأس فتاة متوفاة ، وعندما يفتح صندوقها يجد لصا قد سبقه الى الرأس وسرقه واختفى كأنه عفريت من الجن !.

كل شىء متوافر ومكدس بعضه فوق بعض فى كتاب العنكبوت .. لان ابطال العنكبوت يعيشون الدهر كله طولا وعرضا ، ويرون بعيونهم خلال نصف ساعة فقط ، فترة من الزمان لا تقل عن مليون سنة !.

ان الدكتور م. داود .. دكتوراه فى جراحة المخ والاعصاب من جامعة برلين .

طرق باب عيادته زائر شاب نحيل مهنته مهندس كهرباء ، واسمه راغب دميان .

لم يكتشف الدكتور م. داود أى مرض عضوى فى المهندس دميان .. وبعـد أيام عرف الدكتـور داود ـ بمصادفة رائعة ـ ان المهندس الشاب سفاح رهيب يقتل ضحاياه من الرجال والنساء ، ويفتح رءوسهم ليجرى عمليات تشريحية فى المخ .

وبعد تجارب عديدة أجراها المهندس الشاب فى أمخاخ الناس الذين قتلهم ، أستطاع أن يحرك الجسم الصنوبرى الخامل فى المخ ، ويجعله محور وجود الانسان ، بل يجعله مخزنا للتاريخ كله ، فعن طريق الجسم الصنوبرى يستطيع الانسان أن يرى بعينيه ، خلال ثلاثين دقيقة ، اكثر من مليون سنة .

وعندئذ يكتشف الانسان انه عاش قبل زمانه ، وشهد احقاب التاريخ كلها ، وولد مئات المرات ، بل الوف المرات ، حتى وصل فى النهاية الى عصرنا الحاضر ،والتقى بالمهندس الكهربائى الذى قتله وقام بتشريح مخه والجسم الصنوبرى فيه !.

ان المهندس الذى يقتل الناس فى كتاب العنكبوت ، ويتيح لهم ان يشاهدوا بعيونهم مليون سنة ، هو فى الحقيقة الكاتب الرقيق المعروف مصطفى محمود ، يتخذ من المهندس راغب دميان اسما مستعارا يختفى وراءه ، ببراعة ويخفى رغبته الهائلة فى كسر الزمن ، والارتقـاء فوق ضروراته ، بحيث يعيشه الانسان كله ، يجمع دهوره المتعاقبة ولو اضطر فى سبيل ذلك الى أن يولد ويموت ثم يولد ويموت ملايين الملايين من المرات ، من الأزل الى الابد .

ومصطفى محمود هنا يعبر عن رغبته فى تفادى النهاية الطبيعية للانسان ، وهى الموت .

ان احياء الجسم الصنوبرى فى المخ يعطى الانســان القدرة على ان يرى نفسه حيا على مدى الزمان ، كأنه يرى فيلما سينمائيا يسجل حياته كاملة من عصر الى عصر ، ومن دنيا الى دنيا .. ومن شكل متمضون الى شكل آخر .

فمن الممكن جدا أن يرى الانسان نفسه ، قبل مليون سنة ، ثورا يدور فى « طاحـون » .. ثم يذبحونه ، فيصبح خادما عند أحد الامراء ، ثم يقتلونه ، فيصبح قاطع طريق فى روما ، ثم يصلبونه ، فيصبح فيلسوفا فى الاسكندرية ، ثم يحرقونه ، ثم يموت ، فيصبح تاجر غلال فى البصرة ، ثم يموت ، فيصبح شاعرا فى بلاط امير أندلسى .

وهكذا .. حتى يصبح فى النهاية محرراً فى روز اليوسف، اسمه الدكتور مصطفى محمود .

« ان الاصوات فى هذا الكون لا تفنى .. وكل الوان الطاقة يتحول الواحد منها الى الآخر ولكنها لا تفنى .. كل شىء باق .. لا شىء يضيع فى هذه الدنيا .

« اننا نشعر بالمؤثرات العصبية على هيئـة حـرارة وبرودة وضوء ورائحة والم ولذة .. ولكن كيف ؟. هل هى ترجمة صحيحة ؟. هل الماء لا طعم له ؟. هل الليل أسود والنهار ابيض ؟. ان السر فى المخ .. حقيبـة الاسرار ومفتاح جميع هذه الرؤى السحرية .. وأخيرا تلـك الزائدة الغيبيـة فى المـخ البشرى .. « الجسم الصنوبرى » .. التى تتدلى مثل ترمسة صغيرة وسط المخ بلا وظيفة ، وبلا دور معروف » ..

هكذا يقول مصطفى محمود فى « العنكبوت » .. وقد

استطاع المهندس دميان ان ينبه الجسم الصنوبرى بقذائف الاشعاع وبمادة كيميائية فاذا به يتحول الى حاسة مرهفة .. عين داخلية ترى وتسمع من خلال الماضى .. رادار يكشف شبكة الحوادث ويخرق حجب الزمن ويرينا الزمان كما نرى المكان .

« ان وجه الدنيا ليتغير كثيرا اذا قدر لنا ان يتسع نطاق رؤيتنا الى هذا المدى ، فنرى الماضى، كما نرى الحاضر ، ونسمع الاحداث التى زالت وغبرت ، كما نسمع الاحداث التى تجرى حولنا الآن .. اننا نصبح كالملائكة .. كالانبياء .. كالارباب » .

هكذا – ايضا – يقول مصطفى محمود فى «العنكبوت» .. وبهذا الذى يقوله يلغى الزمن وهو يتخيل انه يعيشه كله .. ويلغى المكان ايضا ، وهو يتخيل انه يتمدد فيه كما يتمدد فى سريره بعد كتابة مقال .

ولا حاجة بنا بعد ذلك ان نقول انه يلغى التاريخ الاجتماعى للانسان ، كما يلغى التاريخ البيولوجى ويلغى جميع العلوم والفنون ، ويلقى بجميع الحقائق فى سلة المهملات !.

ولكنه – مع ذلك – يقدم لك فى كتيبه الصغير مغامرة بوليسية فلسفية فنية علمية ، تقرؤها من اول صفحة الى آخر صفحة .. ويقدم مرحلة جديدة من تفكيره ، الذى بدأ بالبحث عن الروح فى نظرية اينشتين ، ووصل الى اكتشاف خلود الانسان فى المهندس دميان والدكتور داود .

... مع الافيون الأصفر

الورق الاصفر ، هو بطل رواية « الافيون » .. اما عبد المقصود افندى فليس الا ضحية صغيرة من الوف الضحايا الواقعين فى براثن الورق الاصفر .

كان عبد المقصود افندى - فى صباه - طالبا نجيبا تملأ رأسه الاحلام العريضة .

دخل كلية الحقوق وقال لنفسه : خلاص يا عبد المقصود .. ستصبح بعد أربع سنوات فقط أشهر محام فى مصر .

« ولكنها كانت مجرد أحلام ، لم تدم اكثر من سنة ، اضطر بعدها أن يهجر دراسته ليبحث عن عمل » .. فان والده الشيخ المهدى صاحب مكتبة المهدى بزقاق الصنادقية بالازهر ، سقط ذات يوم مشلولا .

واستقر المطاف بعبد المقصود افندى فى وظيفة بالدرجة الثامنة ، يمارسها نهارا .. ثم يجلس بقية النهار وبعض الليل فى مكتبة والده المقعد فى البيت .

وفى المكتبة بدات قصة عبد المقصود ، او محمد افندى عبد المقصود الهادى المهدى .. اذا أردت اسمه كاملا .

« وفى مكتبة المهدى غرق عبد المقصـود فى عشرات الكتب الصفراء ، أمثال : مجريات الديربى الكبير .. تسخير الشياطين فى وصال العاشقين .. كتاب الرحمة فى الطب والحكمة .. تذكرة داود .. شمس العرفان ..

سحر الكهان فى تحضير الجان .. الكلمات السرية فى مناجاة الارواح السفلية » .

هذه نماذج قليلة من أكداس الكتب الصفراء التى غرق فيها محمد عبد المقصود ، ليضيف ما يكسبه من بيعها الى مرتبه الضئيل من وظيفة الدرجة الثامنة ، ويحاول بما يجمعه من المال القليل أن يعول والده المشلول وأسرة كبيرة ، يتعلم أولادها فى المدارس والجامعات .

ومحمد عبد المقصود له أخ اسمه ابراهيم .. مهندس زراعى ، غير متزوج ، مرتبه ثلاثون جنيها ولكنه يعيش فى حدود مائتى جنيه شهريا ، يسكر ويقامر ويصاحب الارتيستات ، ولا أحد يدرى مصدر هذا المال الوفير الذى ينفقه .

اما أولاد عبد المقصود فاكبرهم فتحى ، فى السنة الاولى بكلية التجارة .. « ولد فحل خشن الصوت فى طبعه صرامة وجفوة .. دخل السجن عدة مرات فى قضايا سياسية .. يعيش منفصلا عن بقية البيت عاكفا على كتبه ، وهى دائما كتب أجنبية » .

وزوجة عبد المقصود ، اسمها « زينب » .

وزينب كما يصفها مصطفى محمود « ليست من صنف النساء الذى تراه فى شارع عماد الدين ، فهى من نوع آخر .. وهى باستثناء هذه العادة فى تقميط الفساتين من الخلف ، تحرص دائما على الا تكشف اى جزء من جسمها .. وهى امرأة بلدى .. طرية ... هذا صحيح .. ولكنها لا تزغر الى الرجال هذه الزغرات الجريئة التى نراها فى عيون البنات المودرن .. وانت لا تشم منها روائح الاربيج والشانيل ، وانما تشم روائح أخرى يعرفها العطار

.. روائح تعطعط وتملأ الخياشيم ، وتمتزج بروائح الزنجبيل والمفات واليانسون » .

ولابد أن يقف القارىء وقتا عند أوصاف زينب زوجة عبد المقصود ، فان مشكلته الحقيقية تبدأ من هنا .

فبعد أن غرق فى الكتب الصفراء ، بدأ يغرق فى « تحويجة » يصنعها له العطار تشد أزره فى خلواته .. ولكن سحر هذه « التحويجة » بدأ يبطل لأن عبد المقصود افندى مشغول بكتبه الصفراء عن زوجته زينب .

وبالتدريج تتحول العلاقة بينه وبين زوجته الى أزمة معقدة .. فانه ــ برغم انشغاله فى كتبه ــ قد أفاق الى نصيبه فى الحياة الزوجية ، ولكن افاقته جاءت بعد الاوان .. لانه أصبح غير قادر على ما يتطلع اليــه من ذلك النصيب .

انه يدس يده فى جيبه يتحسس القرطاس ، ويخرج منه « التحويجة » ويأخذ فى مضغها واستحلابها ببطء ، ويمشى متخاذلا الى زوجته ، وكأنه يمشى على بطنه .. لم تعد التحويجة تنفع » !.

ولماذا لم تعد التحويجة تنفع ؟

ان عبد المقصــود يتهم « الشيخ معـروف » العطار بالغش فى التحويجة .. ولهذا لم تعد تنفع « الله يلعنك يا شيخ معروف » !.

وتزداد العقدة تعقيدا ، ولا مهرب منها لعبد المقصود الا الى الكتب الصفراء .. والى الشيخ « بويحيى » المغربى نزيل حى الازهر .

والشيخ « بويحيى » بلغ السبعين من عمره ولكنه

ما زال ريان تتدفق الصحة من خديه .
وهو يهتم اهتماما خاصا بعبد المقصود افندى ، ويبشره بأن الاقدار السعيدة قد اختارته هو بالذات ليكون المهدى الذى يهدى الناس الى الخير .
ويطير عبد المقصود فرحا لهذه البشرى الرائعة ، فان الاقدار التى حرمته من المال والجاه ، لم تحرمه اخيرا من هذا المقام العالى المهيب الذى بشره به الشيخ بويحيى المغربى .
واصبح عبد المقصود افندى درويشا « طالت لحيته ، وتمزقت ثيابه ، واتسخت هيئته ، واصبح نحيلا ضامرا تلمع عيناه فى جحـوظ غريب .. وانطلق يمشي مشية ذاهلة كأنه يخطو على الهواء ، يخطب ويلقى الموعظة ، ويلوح بيديه كأنه يكلم جمعا غفيرا من الناس ، ويبتسم ثم يكشر ويثور ، ويتحمس ويغضب ، ثم يصفو ويضحك ويمد يديه ويصافح اشباحا خيالية » .
لم يعد يجلس فى دكان الكتب الصفراء ولم يعد يكسب منها الثلاثين جنيها التى يضيفها الى مرتبه .. بل انه لم يعد يقبض مرتبا ، فقد انقطع عن وظيفة الدرجة الثامنة فى وزارة الاوقاف .
والناس مختلفون فى شأنه .
بعضهم يقولون : اصبح وليا وقطبا وأصلا ..وبعضهم يقولون : أصبح مجنونا .
واخوه ابراهيم المهندس الزراعى يبلغ عنه مكتب الصحة فيضعونه فى « قميص الكتاف » ويشحنونه الى «الخانكة» .. بينما هو يلوح بيديه للناس ويصيح : الرحمة لمـن لا يرحم .. العفو عن الظالمين .. الوصية أمانة يا اخواننا .. كل واحد يروح بلده يحمل معه الرسالة .. رسالة المهدى .
وفى الخانكة رقد « المهدى » على سرير صغير يجاور

سريرا يرقد عليه رجل يضع على راسه ثلاث ريشات ويسمى نفسه « نابليون » .. وفى الحجرة رجل بعمامة كبيرة يسمى نفسه « هارون الرشيد » وآخر يسمى نفسه « بيكاسو » .

وانتهت رسالة عبد المقصود افندى بين جدران مستشفى الامراض العقلية .. لم يستطع أن يبشر لها احدا خارج هذه الجدران الكالحة ، ولم تتحقق له نبوءة الشيخ ابو يحيى المغربى .

لقد كان عبد المقصود ، قبل ان يدخل المستشفى ، يعد نفسه ليكون وليا صالحا له كرامات .. اذا صعد الكرسى للقراءة امام أتباعه ومريديه سمع البعيد كالقريب، بلا ميكروفون .. حتى اهل القرى البعيدة يسمعونه.. حتى الصم يسمعونه .. وأذا سأل سائل أن يكتب له تعويذة أو حجابا ، أخذ الورقة وكتب عليها من غير مداد.

كل هذه الامور الخارقة كان عبد المقصود افندى يحلم بها قبل دخوله مستشفى المجاذيب .

ولقد ادخله هذا المستشفى أخوه الشقيق ابراهيم المهندس الزراعى .. سامحه الله !.

ولكن الله لم يسامح ابراهيم .. أخيرا امسكت به يد العدالة وادين بتهمة اختلاس الاموال التى يتصرف فيها بحكم عمله ، ودخل السجن .

انتهى كل شيء .. غرق عبد المقصود واخوه فى الطوفان الاصفر الذى كان يبيعه عبد المقصود فى مكتبته بالصنادقية بحى الازهر .

وغرقت أسرة عبد المقصود أيضا فى الطوفان الاصفر .. ولم تعد قادرة على أن تتحرر منه ، فبعد اعتكاف عبد المقصود فى المستشفى جلس ولده الاكبر فى المكتبة الصفراء ليبيع الكتب التى أذهبت عقل أبيه .

وانتهت قصة مصطفى محمود ، ولكن رواية الافيون الاصفر لم تتم فصولها ! .

... صديق الانسان والقرد

وكتاب « يوميات نص الليل » يمكن أن تقرأه قبل النوم ، فتنام سعيدا ، برغم رنة التشاؤم فيه ، لان مصطفى محمود – فى هذا الكتاب – يسليك ويروى لك الحكايات والنكت والالغاز ، كأنه جدك العجوز .

ومصطفى محمود – كعادته – يتفلسف فى هذا الكتاب .. يتذكر الآلام العقلية التى أصابته من مطالعة كتب الفلسفة المثالية ، فيقول لك فى اثناء كلامه عبارة « فلسفية » ثم يقفز الى حكمة ، ويكاد أحيانا يضع على رأسه عمامة الورع والتقوى ، ويطلق لسانه بالوعظ والارشاد !!

لن يتركك .. لن يمل الثرثرة فوق رأسك .. سيتكلم بلا توقف .. هذيان ليلة صيف .. كلام رائع وكلام فارغ .. حتى تنام !

لا يحاول أن يقول لك : أنا فيلسوف .. أنا مفكر .. أنا واحد من الفيران الذين يقرضون بعقولهم الكتب ليل نهار ، ويهضمونها ، ويتعذبون بها !.

وبساطته هذه تجعله صديقك .. هى التى تشجعك على أن تكتب اليه خطابا ليرد عليه فى بابه الصحفى « اعترفوا لى » .

انه يعترف للناس فى كل مقالة وكل كتاب ، فلماذا

لا يعترفون له ؟ لماذا لا يبادلونه الاسرار ؟. لماذا يتفرجون عليه ولا يتفرج عليهم ؟!

وفى كتاب « يوميات نص الليل » يتفرج القارىء على مصطفى محمود بعشرين قرشا .

الكتاب ثمنه عشرون قرشا .. لا يزيد على ثمن تذكرة فى أرخص المسارح .. ولكنك تستطيع دائما ان تزيح عنه الستار وتتفرج ، ثم تطفىء النور وتنام !!

ومصطفى محمود يكلمك باللغة لا بالاشارة ، ولكنه يقول لك : « لقد اكتشفنا افلاس اللغة ، فما اللغة الا مجموعة حروف واشارات ليس فيها صدق غير الصدق الاصطلاحي ، ارتباطنا بالحقائق ارتباط سطحى ، ارتباط بألفاظ » !

هو يريد أن يقول لك أننا نحن البشر لا نعرف الحقيقة .. كلامنا لا يدل عليها !.

هذا طبعا ما يقوله مصطفى محمود فى جميع المناسبات، ولكن يمكن التعليق عليه .

فالالفاظ تمثل جانبا من كفاح الانسان من اجل معركة حقائق الحياة والكون .

ليست الالفاظ عبثا ، فان شرط المعرفة الحقيقية هو تقييدها بالضوابط العقلية التى لا يمكن تصورها بغير اللغة .

الوظيفة ـ كما هو معروف ـ تخلق العضو .. ووظيفة معرفة الحقيقة وتقييدها وضبطها ، خلقت اللغة . وبدونها يصبح الانسان حيوانا .

ومصطفى محمود يقدم اليك فكرة عجيبة .. يقول لك:

ان اللغة تزوير للحقيقة ، وان الطفل الذى لا يتكلم هو الذي تتعلق به الحقيقة بلا تزييف .

انا لا اصدق هذا ..

فان كل خلية في الطفل مخلوقة لكي تنمو وتتطور ليصبح الطفل رجلا له عقل يبحث عن الحقيقة ، ولسان يتكلم به عن الحقيقة .

والطفل أهميته في مستقبله ، لا في حاضره ، فبدون مستقبله كرجل ، يصبح مخلوقا هشا ، غير ذى موضوع !.

« وحينما يرفع الينا الطفل وجها يقطر بالبراءة والسذاجة ليسألنا : من اين جئتم بى الى هذه الدنيا ؟. فانه في الحقيقة يضع سؤالا لا يستطيع ان يجيب عنه أحد » .

هكذا يقول لنا مصطفى محمود .. هكذا يتحدانا ويفحمنا !

ولكن .. على أى شىء يدل سؤال الطفل البرىء ؟!

انه ـ قطعا ـ يدل على ان الطفل لم يخلق ليظل بريئا ـ جاهلا ـ بل خلق لينمو بلا انقطاع ويكتسب معرفة الجيل الذى جاء قبله الى الحياة ، ثم يضيف اليها هو ما يعرفه خلال حياته .. ويسلم كنوز معرفته لمن يجىء بعده !.

هذه هى الحقيقة البسيطة التى يعرفها كل الناس ـ ما عدا الاطفال ـ ولكن مصطفى محمود يطلق عليها قنبلة من الدخان ليحولها الى كلام فلسفى يحاول به اقناعك ، بأن « الحقيقة مطلقة من الاسماء » .. والكلام لا يفيد

شيئا فى معرفة الحقيقة فان الطفل الذى لا يتكلم اقرب الى الحقيقة من الرجل الفصيح !.

بل ان مصطفى محمود يذهب الى ابعد من ذلك ، فيؤكد أن المصلح الحقيقى لا يمكن أن يكون مصلحا حقيقيا الا اذا كان له ما يشبه براءة الطفل وسذاجته والهامه .. وعجزه عن الكلام !.

طبعا هناك مصلحون من هذا الطراز ، ولكن المصلح الحقيقى الذى يغير وجه المجتمع لمصلحة جماهير العاملين، لا يمكن أن يكون سعيه الى « الاصلاح » سعيا ساذجا كسعى الطفل الى لعبته ، ولابد له من معرفة ما يسعى اليه معرفة موضوعية .

ومصطفى محمود يعرف هذا ، فهو يقول فى مقالة اخرى : « المعرفة النظرية ضرورية .. المعرفة بالتاريخ وبالتطور وبالطبيعة الانسانية وبالمجتمع » .

ولكن ما يكتبه مصطفى محمود فى مقالة ينقضه فى مقالة اخرى ، وكل فكرة هنا تعلن افلاس فكرة هناك .

وثمة قضايا معروفة تماما يقف امامها حائرا بلا سبب.

مثلا .. لماذا تطور مجتمع الانسان من العصر الحجرى الى عصر الفضاء ، ولم تتطور جماعات القرود ؟!

سؤال لا يحتاج الى مقالة طويلة مليئة بالحيرة .. فان السبب ـ كما هو معروف لمصطفى محمود ـ ان الناس يعيشون فى علاقات انتاج ، تتطور دائما ، وتنقل المجتمع من مرحلة الى مرحلة .. بينما القرد فى الغابة يعيش فى مشاعية حيوانية دائمة .

والسر .. هو العقل .. هو اللغة هو ما يقول مصطفى محمود انه شيء تافه لا يؤدى الى الحقيقة !.

بدون العقل واللغة يصبح الانسان قردا ، لا ينتقل من مرحلة اجتماعية الى مرحلة ارقى منهـا .. هـذه ليست « حدوتة عجيبة من الف ليلة وليلة » كما قال مصطفى محمود معبرا عن دهشته لتطور الانسان وتخلف القرد .. وانما هى حقيقـة بسيطة يستطيع مصطفى محمود ان يفهمها بسهولة .. ولا شك فى انه قد فهمها من زمان !.

من المادية إلى التصوف

وقفت اخيرا اتأمل كيف بلغ الدكتور مصطفى محمود مفترق الطرق بين الدين والمذاهب الدنيوية ، فاختار الدين وسار فى طريقه ، حتى صار من أشهر المؤلفين الدينيين — غير الرسميين — فى ايامنا .. ومن اقربهم الى القراء المتدينين فى مصر والعالم الاسلامى .. وانهم لكثيرون .

مصطفى محمود لم يسلك طريقه الروحى الجديد بعد دراسته كتب الدين ، ولكن بعد مطالعته كتب المادة . ولهذا كانت معرفة فكره ذات أهمية خاصة فى راى كثير من عارفى تطوره الفكرى وتحوله .. وعارفى فضله ومنكريه .

ولعلى أحصيت — بالتقريب — عدد ما قرأت له من مؤلفات منذ بضعة عشر عاما الى اليوم ، وعدد ما أبديته من آراء حول كتبه هذه ، فوجدته لم يغب عن ناظرى قط خلال تحوله الفكرى البطىء من الدنيا الى الدين ، ثم خلال تحوله من الايقاع البطىء الى الايقاع السريع العاصف .. كانت سرعته فى التحول طوال السنوات الثلاث أو الاربع الاخيرة كانفجار بركان ، بعد ان كان كل شىء فى قديم كتاباته يوحى بأنه مجرد كاتب جميل الاسلوب ، خفيف الظل ، متنوع المعلومات ، يرعى قراءه بالسمر والسهر فى أوقات فراغهم ، فيملؤها بألوان البهجة والدهشة والحيوية والحبور !.

وحدث ان زرت صديقنا مصطفى محمود مرة فى بيته فلاحظت أسبابا فى تحوله الفكرى كانت خافية ، ففى شرفة منزله ينصب تلسكوب لامع جديد ينظر به الى الفضاء كل ليلة ويطيل النظر والفكر ، كأنما شرفته قمة جبل ، أو غار فى قمة جبل وكأنما عين التلسكوب خيط يمتد بينه وبين أجواز الفضاء .

سألته : أهذا مشروع صغير لغزو الفضاء ؟!

أجاب ـ بل احاول ـ فقط ـ أن أشاهد بعض عجائب ملكوت الله .. انظر الى المشترى .. يا حبيبى المشترى ما أضواك !.

تبينت فى تلك الليلة انه يقتنى هذا التلسكوب منذ مدة ليمد به عينيه الى القمر والكواكب والنجوم ، ولم تكن سفن الفضاء قد وصلت بعد الى القمر بملاحيها الرواد .

خيل الى انه ـ بهذا التلسكوب ـ لا يكتفى بالنظر الى القمر ، بل يسجل أيضا خواطره الحائرة على سطح هذا الكوكب الخامد الحائر ، ويبنى على جدبه وفوق جباله بيوت افكار ، ويشق فى ترابه أحواض الزهور !.

ولاشك ان ما شاهده وراء هذا التلسكوب أو أمامه كان من أسباب بداية تأرجحه بين النظرات العلمية البحتة ـ ان صحت التسمية ـ وبين مثاليات الغيب المحجب فى الأستار .

ومن عجائب القمر التى لمسها بعينيه ، استنزال شتى الافكار والاقوال ، ما يأتلف منها أو يختلف على حسب الاحوال .. واستملى من تلك العلالى الفضائية تعبيرات جميلة تمس حقائق الحياة والمجتمع والكون من بعيد أو

قريب ، كسفينة فضـــاء تاهت بملاحيها فى اللانهـــاية واللابداية .

ولكن هذا التأرجح لم يكن الا أول تحول من المادية الى عالم الغيب . ولكم عاني من هذا التأرجح ، وارتج عليه فوق منبره يخاطب قراءه ، فكان منه ما قد يذكره بعضهم حتى الان من ذلك الخليط الوجودى الثورى الرومانسى الصوفى . ولكن حتى هذا الخليط الذى يبدو عجيبا لا يدخل العقل ، كان متعة لكثير من قرائه حينذاك ، بمذاقه الحار ، وحيرته ، وهداه ، وما يستمتعون به من ذلك وما لا يستمتعون !.

ولبث حينا برغم نية التحول ، وبدء العمل بهذه النية، يمس بكتاباته جروحا فكرية وروحية وعاطفية عند كثير من الناس ، وعايشه المعجبون به ، وغير المعجبين ، فى مغامراته الفكرية الجديدة ، وقالوا : انه مصطفى محمود وتقلباته وشطحاته !.

واستمر يصوغ أفكاره المتحولة ، باسلوب اختص به : ذلك الاسلوب الذى تتراوح كلماته بين لغة الطفولة ولغة الحكمة ، وتتسنم نبراته فى الدعوة الى « اصلاح الكون » ببراءة الطفل ، ودهاء المفكر اللبيب .

وهو فى الحالين أب صغير للبشرية المعـذبة ، يرعاها متوجسا عليها وهى تجوب الارض وتوغل فى الفضاء ، ويربت اكتاف أجيالها الجديدة ، وأكتاف أجيالها الكهلة والشائخة ، ولا ينسى أن يترحم على أجيالها السابقة التى أتمت دورها فى الحياة ورقدت فى أجداثها رقدتها الابدية على بساط الراحة الكبرى !.

وقبـل ان يقف مصـطفى محمود نهائيا فى صفوف

المتدينين المتصوفين لم يكن يستطيع أن يرى الدنيا على حقيقتها .. هل السماء زرقاء ، والحقول خضراء ، والرمال صفراء ، والعسل حلو ، والعلقم مر ، والزجاج شفاف ، والجدران صماء ؟!.

وجوابه : لا .. ليست هذه هي الحقيقة .. فما هي الحقيقة اذن ؟!.

ذهب يبحث عنها فى كتب اينشتين ، ويسأل نفسه : أهؤلاء البشر الذين أراهم ، وهذا الكون الذى يضطربون فيه ، حقيقة أم خيال ؟!.

وبعد طول قراءة وتدبر وتفكير همس لنفسه : لقد سقطت المادة .. العالم غير مادى .. الحقيقة !.. ما الحقيقة ؟!. الانسان لا يعرف شيئا فى هذا الكون !.

ويقول فى بعض كتاباته خلال تلك الفترة من تحوله الفكرى : « المادة هى قمقم سليمان ، فيه عفريت ، واينشتين هو الذى أطلق تعزيمة الرموز والطلاسم الجبرية فانفتح القمقم وخرج العفريت .. المادة ليست مادة.. انها حركة .. ما الفرق بين أن نقول ذلك وبين أن نقول انها روح ؟! » .

ولماذا يختار مصطفى محمود ان يسمى المادة روحا بعد أن اكتشفت أن المادة مجرد حركة ؟!

لأن الروح — كما يقول — « تعبير صوفى نقصد به الفاعلية الخالصة التى بلا جسد .. والمادة اتضح انها فاعلية خالصة .. حركة .. وان جسمها الملموس وهم من أوهام الحواس » .

وفى تلك الايام التى كتب فيها هذا الكلام قيل له : ان هذه الافكار — على الصعيد الفلسفي — ليست جديدة ..

اما ان أردت العلم المحض فان المادة ذات الجسم الكثيف التي قال بها القدماء ، قد سقطت علميا .. لم يعد للمادة فى عصرنا تعريف ثابت مقدس .. تعريفها الوحيد عند العلماء الجدد ، انها قائمة فعلا خارج فكر الانسان .. تواجه عقله ، ومهمته ان يبحث فيها ويكتشف أسرارها بلا انقطاع ، ولا يقف خلال هذا بحث عند حقيقة نسبية مهما كانت ضخمة فيظن انها هي الحقيقة المطلقة ، لا كل حقيقة نسبية تقود الباحث الى حقيقة تالية .. بهذا قالوا له .. وغنه أعرض ونأى جانبه .

ولقد سقطت المادة القديمة فعلا .. سقط تعريفها بالجسم الكثيف وما الى ذلك من تعريفات ، وبقيت المادة « غير المادية » التى ترتبت عليها العلوم الذرية وغيرها.. أو لعل هذه المادة غير المادية هى التى خرجت من أحشاء العلوم الذرية !.

. ورواية « العنكبوت » التى كتبها مصطفى محمود منذ سنوات وظهرت فى التليفزيون ــ على حلقات ــ وكذلك رواية « رجل تحت الصفر » التى ظهرت أيضا فى تلك الفترة ، أساسهما هذه الفكرة : المادة فى تحليلها النهائى روح ، لان كل تحليل لاى شيء فى عالمنا المادى ، يعطى العيون صورة أخرى منه ، حتى يتساوى الحجر الصلد فى آخر المطاف مع الهباء .

بعد هذه الجولة ، أو الجولات المتعددة ــ ونحن نوجز الكلام عنها ايجازا ــ استقام مصطفى محمود على جادته الروحية .. ابتعد عن المادة تماما صار كل جديد يكتبه ينقض قديما كان قد كتبه ذات يوم !. وكل فكرة يعلنها تزيح فكرة قديمة له عن مكانها فى عقله .. ودخل فى دين الله مؤمنا مخلصا حقا فى ايمانه .

وانقطعت رواياته « العلمية » العجيبة التى كان لا يكتب مثلها أحـد غيره فى مصر .. كروايتيه « العنكبـوت » و « رجل تحت الصفر » اللتين أشرنا اليهما ، ورواية « مغامرة فضاء » التى أدارها حول جريمة تقع بطريقة علمية لا يفهمها أهل عصرنا لان هذه الجريمة ستقع بعد مائة عام !.

وانتهت الأزمة الفكرية التى أورثته اياها كتب المادة، ووضع على صدره او على رأسه شعار الورع والتقوى ، وانطلق لسانه بالوعظ والارشاد ، ولكن بلغة فنان قديم وفيلسوف هجر الفلسـفة ، وكاتب بقيت له رشـاقة تعبيره ، وبراعة وصوله الى القلوب التى فى الصدور .. وان تغيرت المعانى والكلمات .

ومصطفى محمود المتدين صـاحب المجموعة الكبيرة الجـديدة من الكتب الدينية ، لا ينكر ضرورة المعـرفة بالتاريخ والتطور والطبيعة الانسانية والمجتمع وعجـائب الكون ، ولكنه يوجب أن يكون السبيل الى المعرفة هو الدين أو بالدين ، فلا معرفة لشىء فى الارض والسـماء بدونه .. وهو يجادل عن رأيه هذا بكل قوة وثبات... ويحتفظ فى مرحلته الجديدة بجمال خياله كما كان قديما، وبنفاذ بصيرته ، ودقة شعوره ، وخلابة بيانه ، ويقوم بسياحات فكرية مثيرة فى بحر الكون الواسع ، وفوق متن التاريخ الاجتماعى كله ، ويقفز من زحل الى المريخ الى المشترى الى القمر ، عائدا الى الارض .

ومصطفى محمود هو كاتب « شلة الانس » وصاحب التعبيرات العامية البلدية المفرقة فى عاميتها ، وكاتب « الافيون الاصفر » يصف به الكتب القديمة الصفراء ، وكاتب « لغز الحياة » الذى سلم فيه بالمقولات المادية..

وكاتب « اعترفوا لى » الصاخب بالاعترافات .. و « ٥٤ مشكلة حب » .. الى آخر تلك القائمة الطويلة من كتب ما قبل استقامته على جادته الدينية وايغاله فيها مطمئنا مرتاحا ، بكل اصرار وثقة ، فقد اتخذ القرار النهائى .

ولكن تلك بدايته الفكرية التى لم تمنعه بعدها أن يكتب عن « الله » و « القرآن » و « محمد » وأن يحج ويعتمر، ويتخذ من الكتاب والسنة هـداية وسبيلا الى الدنيـا والآخرة ، والا يبالى شيئا بعد ذلك .

وقد صمت عنه الكاتبون تقريبا بعد تحوله هـذا ، فلماذا ؟!. ان دراسة تحول مصطفى محمود من كاتب « ٥٤ مشكلة حب » و « اعترفوا لى » الى كاتب دينى ذى عقيدة دينية متينة لتستحق ان ينهض بها غير واحد ممن يرصدون التطورات الفكرية فى مصر خلال الحقبة الاخيرة ، وما دامت الامانة العلمية هى شعار هؤلاء فيما يكتبون عن التطورات والتيارات الفكرية ، فان الفـائدة محققة فيما نرجو .. اما السكوت فهو نقص فى البحث او صمت عن البحث .. ولا مبالاة !.

لحوم للمفكرين

ليس صحيحا أن الخبراء العالميين فى التغذية لم يجدوا حتى الآن حلا نهائيا حاسما لمشكلة نقص اللحوم ، فان هذا الحل السعيد الموفق موجود بكل تفاصيله عند المستشار محمد كامل البهنساوى عضو الجمعية النباتية العالمية التى تتخذ لها مقرا رئيسيا فى لندن .

والمستشار البهنساوى متصوف وأديب .. عاش فى المحاكم عشرات السنين يقضى بين الناس بالعدل ، ثم رأى ان عدالة المحاكم وحدها ناقصة لا تكفى ، وأن العدالة الانسانية المثلى لابد أن تشمل برحمتها الطير والحيوان والسمك والزواحف وكل جسد صغير أو جسد كبير فى الارض والماء والهواء .

وهو يرى ان تطبيق هذه العدالة الانسانية التامة ، سوف يؤتى ثمرته فى النهاية فيتمخض عن معجزة الحل الجذرى لمشكلة اللحوم فى العالم كله ، وعندئذ يرتاح خبراء التغذية العالميون والمحليون ، وتقوم بين الانسان والحيوان صداقة دائمة !.

والحقيقة ان كتاب الاستاذ البهنساوى ، وعنوانه « النباتية والنباتيون » يصادف وقتا دقيقا فى العالم كله ، تحتاج فيه مشكلة اللحوم الى من يدافع فيها عن الطرف الذى لا يتكلم ابدا ، مع انه صاحب اللحم ، بل هو ذاته اللحم الذى صنع المشكلة المستعصية !.

وقد تكلم الانسان طويلا بأنانيته المعروفة : « أريد لحما .. هاتوا مزيدا من اللحم .. » .. فلابد من محام مفوه يدافع عن اللحم المغلوب على أمره ، وينصفه من غرمائه الاقوياء الكثيرين . وقد تطوع المستشار البهنساوى ــ وهو القاضى العريق ــ فكان هو المحامى المنشود .

واذا لم تكن على معرفة كافية بتاريخ كفاحه فى هذا المضمار ، فنحن نوجزه لك نقلا عن كتابه .

فى الثامنة من عمره بدات قصته مع اللحوم .. راى سكينا تمر على عنق دجاجة صغيرة فى منزله فتصبغ بدمها الارض .. ثم قدموها فى الغداء فلم يأكل منها .. وبعد سنة أخرى أو سنتين فى منزله مصرع خروف العيد بسكين جزار غليظ اليدين ، فأضرب عن أكل اللحم اضرابا تاما ، برغم ما كان يلقاه من التشجيع على اكله والتحذير من مقاطعته !.

ولما أصبح فى الخامسة عشرة أعلن نفسه نباتيا فكان النباتى الوحيد فى أسرته ، ثم كرس نفسه نباتيا الى الابد واعتنق آراء النباتيين العرب والاجانب .. وظفر بالسعادة الكبرى حين زار لندن ــ وقد كبر وأصبح قاضيا ــ فالتقى هناك بزعماء الجمعية النباتية وتحدث اليهم وتحدثوا اليه ، وأصبح عضوا رسميا فى الجمعية .. ومازال منذ ذلك العهد شديد الاخلاص للنباتية ، وثيق الصلة باخوانه النباتيين .. وقد تبلور المذهب النباتي لديه فى ثلاثة مبادىء : الامتناع عن اللحم .. الامتناع عن الخمر « مع أن أصلها نباتى » .. الحرص على الألعاب الرياضية ..

وللمستشار البهنساوى فى النباتية أساتذة كثيرون من جميع العصور والقوميات والاديان .. ولكن أعظمهم أثرا فى

نفسه اثنان : أبو العلاء المعرى ، ومحمد فريد وجدى .

والرجلان كلاهما فيلسوف أديب شاعر باحث فى الدين .. وقد رحما الحيوان فامتنعا عن أكل لحمه لاسباب فلسفية وادبية وشاعرية ونفسية ، الى جانب الاسباب الفسيولوجية التي لابد منها بطبيعة الحال .. ولم يكن فى عصر المعرى منذ تسعمائة سنة ، ولا فى عصر فريد وجدى منذ خمسين سنة ، ما نسميه الآن مشكلة اللحوم .. كانت اللحوم فى عصر هذا وذاك اكثر من آكليها .

وقد مشى البهنساوى فى آثار المعرى ووجدى لاسباب نفسية طفولية وجدت عندهما تبريرها الفلسفى .. وهكذا جاء كتابه « النباتية والنباتيون » مرافعة فلسفية أمام محكمة آكلى اللحوم الحيوانية .. وهى محكمة لا ترحم ولا تبالى بالمرافعات الفلسفية !.

مع ذلك فان هذه المحكمة لو أصغت قليلا لوجدت فى كلامه ما عسى أن تقتنع به .. فهو لا يعرض عليها الامتناع من اللحم لكي تموت جوعا ، بل لكي تأكل طيبات كثيرة انبتها الله فى الارض كاللوز والبندق والفاكهة ، وقد « اثبت التحليل الكيميائى أن اللوز والبندق يحويان من المواد المغذية ثلاثة اضعاف ما يوجد فى أحسن لحوم البقر والغنم » .. و « اثبتت التجارب ايضا ان الانسان يمكنه ان يحيا على البندق بمفرده ، لان المادة الزيتية الحلوة الموجودة فيه تمنح حرارة وقوة وتقاوم فى الدم . واكثر من ذلك فهي سريعة الهضم لا تحتاج لجهد كبير فى المعدة والامعاء ، وتقوى من عضلاته ولا تكسبه أى تشحم فى الجهات القابلة للسمنة » .. و « كذلك التفاح

والكمثرى والفواكه ذات البذور الاخرى » .. هكذا قال ..

فالانسان لم يخلق ليكون من اكلة اللحوم ، وانما خلق ليكون نباتيا ياكل اللوز والبندق والتفاح .. « ويؤكد الدكتور كلين الالماني ان دم القرود الراقية هو الذى يشابه فقط دم الانسان فى تكوينه ، وعلى ذلك اذا كان لنا ان نأكل لحما فلا يكون الا لحوم تلك القرود

ولكن من ذا الذى يترك لحم الدجاج والديك الرومى وياكل لحم القرود ؟! .

بعد هذه الدعوة الحارة الى اكل التفاح واللوز والبندق والاضراب تماما عن اكل اللحوم ، يتساءل الاستاذ البهنساوى وقد وصل الى مفترق الطرق الفلسفية فى موضوعه :

ـ أى حق للانسان فى قتل الحيوانات ؟! ..

والجواب :

ـ لا حق له فى قتلها ، فضلا عن اكلها ..

وهذا جواب اخلاقى فلسفى لا قانونى بطبيعة الحال، ولو وقف بين يدى المستشار البهنساوى أحد جزارى « المذبح » متهما بقتل مائة خروف وعجل وماعزة فى يوم واحد ، لاضطر الى تبرئته فورا ، مع أنه يود أن يحكم عليه بالاعدام !.

وتلك هى القضية التى تعذب ضمير المستشار : القانون مع القتلة .. فما العمل ؟!.

ان المستشار يحب القانون ويحب المذهب النباتى ، ولا سبيل الى شنق قتلة الحيوان ، فلا مناص اذن من أن يتجه بالحكمة والموعظة الحسنة الى كل من يأكل اللحم :

« لماذا تحاول أن تلتذ بأكل اللحم مع أنه يقوى فينا العواطف الحقيرة والآمال الصغيرة ، ويهيج كثيرا فى لذاتنا التى تفقدنا كثيرا من القوى الطبيعية التى يجب أن تقف عند حد » .

واخشى أن تكون هذه الكلمات أقوى حافز لأكل اللحم، حتى لمن لا يأكله بانتظام .. ويبدو أن الداعية النباتى المتحمس قد كتبها فى غمرة حماسته وهو غير متنبه الى ما تحمله من تحريض على أكل اللحم بأوفر الكميات وفى كل الاوقات ! ..

الا أن هذا الخطأ فى الدعوة الى مقاطعة اللحم يذوب فى بحر من الحقائق العلمية والمواقف الاخلاقية والبيانات الاقتصادية والطبية التى تحبذ مقاطعة اللحم والاكتفاء بما تنبته الارض من الوان الفاكهة والياميش ، وما تجود به الحيوانات الاليفة من الالبان .. هذا خير للانسان من عمليات القتل اليومى التى يقترفها طلبا للحم الحيوان .. فليترك الناس هذه الحيوانات العجماء المسكينة فى عالمها الكبير المليء بالافكار الغامضة والآلام الصامتة العزلاء !.

الحقيقة ان الكتاب غزير المادة ، يسلك كل طريق فى الدعوة الى النباتية حتى ليصورها أملا للبشرية فى الانتصار على الامراض الخطيرة كالسرطان وتصلب الاوعية الدموية، وحل مشكلة الجوع وكثرة النسل وسوء الصحة فى البلدان الزراعية الفقيرة الغاصة بالسكان !.

ولكن الباعث الاخلاقى والفلسفى يبدو وراء كل صفحة فى الكتاب ، قبل جميع البواعث الاخرى التى تراكمت فى وجدان المؤلف وعقله وجسده من أيام الدجاجة المذبوحة فى المطبخ الى اليوم .

وصورة المؤلف تتراءى وراء سطوره كأنها نسخة جديدة من صورة أبى العلاء المعرى التى فاتت عصر الكاميرا ، مضافا اليها ملامح من صورة المرحوم محمد فريد وجدى النباتى الفيلســوف الذى تتلمذ عليه العقــاد فى الادب والفلسفة وتتلمذ عليه البهنساوى فى الفلســفة والادب والنباتية ..

ومهما يكن عطفك على الباعث الاخلاقى للمؤلف فان ثمة حقائق لابد أن تفكر فيها .. فماذا يحدث مثلا اذا أتاح التطور العلمى للانسان أن يستغنى عن أكل لحوم الدواجن والحيوانات المستأنسة ؟!.

لا شك أنه ســوف يستغنى عن خدماتهــا ويكف عن تغذيتها وحمايتها فيكون مصــيرها الانقراض .. فكأنما الذبح خــير للطير والحيوان لانه يمنحه فرصة الحيــاة ولو بعض الوقت .. أما استغناء الانسان تماما عن اللحوم فعاقبته زوال الحيوان والطير من الارض ، وتغدو المسألة عندئذ « ابادة جنس » تقتضى تدخل الامم المتحدة !.

وفى مجاعات القــرون الخــالية أكــل الناس القطط والفيران والكلاب ، بل أكلوا أنفسهم وسجل التاريخ أكل الانسان المتحضر للانسان المتحضر فى المدن الكبرى .

ولعل الناس يمتنعون عن أكل الحيوان عندما تتسع فى المستقبل تطبيقات العلوم وبخاصة الكيمياء ، فيغدو اللحم طعاما مستقذرا الى جانب الطعام النظيف الجيد الذى سوف تصنعه مطابخ الكيمياء .. ولن تكون البواعث الاخلاقية عندئذ هى السبب وراء هذا التطور فى موقف الانسان من لحم الحيوان ، لان الكيمياء المتطورة الجبارة سوف تكون هى السبب !.

فالدعوة الى عدم أكل اللحوم لا تنجح بالحكمة والموعظة ،

وانما بتطور الصناعة والزراعة والعلوم وما يترتب على ذلك من تطور المجتمع والناس .. ولكن الانقراض هو الثمن الذى سوف تدفعه الحيوانات والطيور لان الانسان عندمايستغنى عن لحمها لن يستبقى منها الا النماذج للدراسة والزينة .. ولن يتاح للحيوان والطير امتلاك جزء من الارض والاستقلال به عن الانسان لان الانسان بقدرته قد ملك هذه الارض ولن يتنازل عن شبر منها للخراف والعجول والحمام والدجاج !.

وما دام التناقض اساسيا فى الوجود فان كل انسان وكل حيوان يأكل ويؤكل بطريقة من الطرق . وقد تكون الاخلاقيات الانسانية نوعا من الاحتجاج على التناقض الرهيب فى الوجود كله ، ولكن هذا الاحتجاج لن يغير العلاقات القائمة فى الكون منذ الازل .

ولن تقتنع وحوش الغابة بالاخلاقيات الانسانية ، وسيأكل الذئب النباتيين كما يأكل اللحوميين . وستظل السمكة الكبيرة ذئبا للسمكة الصغيرة ، وكل قوة تفترس نقيضها الضعيف .

وانه لاجدى للاخلاقيين أن يعظوا الانسان بالا يأكل اخاه الانسان .. يكفى كل الكفاية ان يأكل الانسان صديقه الحيوان !..

لقد لبث المعرى ـ استاذ البهنساوى ـ يعظ قومه بعدم قتل الطير والحيوان حتى وعظهم فى النهاية بعدم قتل البرغوث :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به
أبر من درهم تعطيه محتاجا

فماذا كان يفعل المعرى الذى يدعو الى اطلاق سراح البراغيث المقبوض عليها ، لو رأى الفرنج فى الغزوة الصليبية الاولى للشام يذبحون مائة ألف من سكان بلدته « المعرة » ؟ .. لقد مات المعرى قبل هذه المذبحة بزمن قصير ، ولو رآها لعلم أن القبض على البراغيث ليس بالقضية ذات الاهمية القصوى الى جانب قضية مائة ألف من سكان المعرة ذبحهم الغزاة بالسيف !.

والقضية فى عصرنا — كما كانت فى عصر المعرى — هى أن الانسان هو المذبوح فوق الارض ، وان الخروف يفضل أن يذبح ويعلق سليخا فى دكان الجزار ، على أن يذبح ويسلخ فى فلسطين أو أفريقيا أو فيتنام !.

أنيس منصور
وبقايا كل شيء

« ان حياتنا كقطار الصعيد .. ونحن أشولة ومقاطف وسلال تتساقط على طول الطريق . فلا يدرى بنا أحد ، والقطار يمشى » .

هذه الكلمات التى ترقص ببراعة فوق الورق ، كتبها أنيس منصور فى مقالة قصيرة من مقالات كتابه الذى جعل عنوانه « بقايا كل شىء » .

فى هذا الكتاب الصغير جمع أنيس منصور ما نشره من الصور الادبية والمقالات والخواطر والحكايات والقصص القصيرة ، وهى كلها تعبر عن افكاره فى مرحلة معينة يحاول أنيس فى هذا الكتاب ان يتخطاها .

وككل فنان يحب فنه ، يريد أنيس ان يعرض على قرائه كل أفكاره السابقة ، فى الوقت الذى بدأ فيه يعرض عليهم أفكاره الجديدة .

انه لم يقطع صلته بهموم عقله الكبرى المتعلقة بالحياة والكون .. فما زال يحمل تبعاتها على كتفيه كأنه « العاشق الوحيد » الذى قال الشاعر على لسانه :

أأنا العاشق الوحيد لتلتقى
تبعات الهوى على كتفيا ؟

وانه ليخيل اليك اذا انعمت النظر فى كتابات أنيس منصور انه انتدب نفسه للتفكير نيابة عن الجنس البشرى كله فى معضلات الحياة والكون .

ولو جاء أنيس منصور قبل زمانه لرأيناه يحول أن ينتدب نفسه للتفكير عن البشرية كلها ، لا لمجرد التفكير نيابة عنها !.

واذن لرأيناه عندئذ مصلوبا على جذع نخلة ، أو مشنوقا على باب حصن قديم من حصون سلاطين القرون الوسطى ، أو أباطرة القرون الاولى .

ولكن أنيس منصور — لحسن حظه — جاء فى عصرنا ، فلم يتح له الا التفكير .. دون التفكير .. غير أن جوهر المعضلة لم يتبدل ، ولهذا تبدو افكاره وكأنها مصلوبة أو مشنوقة !.

و « عشماوى » الذى يشنق افكار أنيس منصور ، هو شخص رهيب اسمه أنيس منصور ، ولكنه لا يشنقها غراما بشنقها وازهاق أنفاسها ، بل تلبية لاوامر لا نقض لها ولا ابرام تصدر عن قوة قاهرة تسللت الى عقله ، بل الى كيانه كله ، وأصبحت هى الآمرة الناهية ، ذات السلطة المطلقة .

كيف حدث ذلك ومتى ؟ .

حدث ذلك عندما التقى أنيس بالحياة وجها لوجه ، وهو صبى صغير فقير قد اعتزل دنيا الناس ، وعاش فى دنيا الكتب .

وفى دنيا الكتب الواسعة اقتات كل الافكار ، ولكنه استطاب الافكار المتشائمة ، وعقد نسبا بينه وبين الافكار التى تخرجه من وحشة الحياة الواقعية الضيقة ، الى رحاب الكون المطلق .

وعجزا عن حل قضايا الحياة اليومية ، هرب انيس الى قضايا الكون .. وانطلق يفكر فى الموت وبطلان الحياة ، ووجود الانسان ذاته ، واخفاقه المحتوم ، عندما تتلاقى

مصائر الناس جميعا فى النهاية ، ويموت جالينوس الطبيب العلامة ، كما يموت راعى الاغنام الذى لم يتعلم حرفا واحدا من الطب !!

العزلة جعلت من أنيس متصوفا بطريقته الخاصة ، لم يلبس الصوف ولم يعتكف فى خانقاه السلطان ، ولم ينظم الشعر على طريقة ابن الفارض ، أو طريقة أبى العتاهية .. ولكنه امتلأ بخيبة الامل المريرة التى جعلت أبا العتاهية يقول :

الناس فى غفلاتهم
ورحى المنية تطحن

الا أن انيس منصور وجد عالم الفلسفة الاوربية أرحب بكثير من عالم التأملات الذى عاش فيه المتصوفة العرب القدماء ، فلم يلبث أن ألقى بنفسه فيه ، وأصبح فيلسوفا .

وفلسفة انيس بسيطة ..

صحيح أنها معقدة فى تفاصيلها وتهاويلها واصطلاحاتها الكثيرة .. ولكن جوهرها بسيط جدا ، يمكن شرحه فى كلمتين : الدنيا فانية !!

دنياك أيها المليونير فانية مثل دنيا المفلس البائس النائم فوق رصيف عمارتك !

دنياك أيها البطل الرياضى القوى فانية مثل دنيا المريض المنهوك الذى يسقط اعياء من أقل حركة !.

دنياك ايتها الحسناء الفاتنة المعبودة من ملايين الرجال، مثل دنيا الحاجة التى عاشت ثمانين عاما وجلست تنتظر حسن الختام .

كل شىء باطل .. باطل الاباطيل .. انت فى المصير مثل غيرك .. والدنيا فانية !

هذه الافكار كلها قديمة ، جاءت فى كتب متعـددة ، بلغات متعددة ، وناقشتها الاديان ، وتناقلتها الاجيال ، حتى وصلت الى الفلاسفة الذين نقشوها فى الكتب التى حشا بها أنيس دماغه فى صباه ..

وهو الان يحاول أن يحرر عقله وقلبه ويزيح عن صدره هذا الكابوس الثقيل .

ولكن المسألة ليست سهلة ..

فهذا الكابوس ليس لعبا .. انه كابوس فلسفى ذو جذور عميقة ، ولا يمكن اقتلاعه الا بثورة فلسفية .

وهذه الثورة الفلسفية ، كيف يمكن أن تتحقق ، ما دامت الحياة فعلا ذات مصير واحد هو الموت .. وما دامت الدنيا فعلا ـ كما يقول الناس ـ فانية !؟

الحقيقة .. انه لا يوجد حل لمسألة الموت والمصير الواحد ، لا فى الفلسفة المادية ، ولا فى الفلسفة الغيبية .

الحل الوحيد ، هو أن يعيش الانسان ما دام حيا ، ويناضل فى سبيل حياة افضل للناس الذين يجمعهم المصير المشترك احياء وامواتا .

هؤلاء التعساء الذين يصفهم انيس منصور بأنهم اشولة ومقاطف وسلال تتساقط على طول الطريق من قطار الصعيد ١٩٦٥

صباح الخير ايها الملل

الملل عند أنيس منصور له معنى آخر غير المعنى الساذج الذى أعرفه أنا وأنت .

فأنت وأنا نشعر بالملل من رتابة الحياة مثلا ، أو من تشابه برامج التليفزيون ، او من ركود مباريات كرة القدم ! .

وهذا النوع من الملل نابع من ملابسات الحياة اليومية لى ولك ولسائر الناس .. وهو موجود فى كل مكان وزمان ، وسيظل الانسان يعانيه ، بدرجات متفاوتة فى كل المجتمعات ، حتى فى المدينة الفاضلة التى تخيلها الباحثون عن حياة أفضل ! .

أما الملل الذى يعنيه أنيس منصور ، فهو الملل الفلسفى .

الملل من المأزق الخالد ، التوحد فى هذا الوجود ، والاخفاق الذى يجعل جميع الاعمال الانسانية متساوية فى المصير !

هذا هو الملل الذى يعنيه أنيس ، وليس معنى ذلك انه يعانيه .

فهو يعنيه فلسفيا ، أما معاناته فتتعلق بظروف حياته الواقعية ، ولا اظن أن فى حياته الآن ما يجعله يعانى الملل الفلسفى الذى يعنيه فى كتاباته !

فى الماضى ، كانت حياة أنيس شاقة مؤلمة ، نشأ ويداه فارغتان من كل شىء .

وعندما التحق بقسم الفلسفة فى كلية الاداب ، كان بعض أساتذة هذا القسم يتكلمون كثيرا عن نيتشه

وهايدجر .. وفى النهاية وصلوا الى جان بول سارتر .

ان أنيس منصور الذى نشأ فيما يشبه ظروف البروليتاريا ، من انقطاع اسباب التملك ، بل واسباب الحياة نفسها ، لم يلتق بفلسفة تعبر عن واقع هذا الحال ، وترسم طريق الخلاص منه ، وانما التقى بفلسفة تنوح على مصير الانسان ، وتشيعه باليأس القاتل الى مقره الابدى فى ظلمات الاخفاق !

فمن الذى يلومه وهو ماض فى طريقه الفلسفى الذى وجده ؟!

صحيح انه نجح فى حياته .. اصبح كاتبا مشهورا وصاحب اسلوب فى الكتابة يقل نظيره جمالا واشراقا وحيوية ولطفا ، واصبح رئيسا للتحرير ، وعضوا فى لجان فنية وعلمية ونجما تليفزيونيا واذاعيا ، وفتى محبوبا الخ .

ولكن هذا كله دواء للملل الحياة اليومية ، للملل الفلسفي العميق الذى اصيب أنيس بجرثومته فى قسم الفلسفة بكلية الاداب ، وهو شاب صغير يرى الحياة عابسة .

والحياة تتسع للملل الفلسفى .

أن الكاتب الذى يعبر عن ملله الفلسفى بصراحة ، افضل من الكاتب الذى يضع على راسه عمامة الورع والتقوى ، ويعظ الناس فى مضار هذا الاتجاه الفلسفى !

وانيس منصور فى كتابه « وداعا ايها الملل » يحاول أن ينفذ افكاره عن الملل !

إنه يعلن فى مقدمة كتابه انه وجد دواء شافيا للملل !. وجد .. « الحب » !

الحب جعله يحب الاشياء الكريهة الشريرة ويحتملها ويتقبلها .

الحب جعله لا يفقد صبره ازاء الاشياء الكثيرة التى لا اسم لها ولا معنى .

الحب جعله يحب النجوم البعيدة الهائلة ، والقوى الصامتة المخيفة فى هذا الكون .

انه يحب ، فهو اذن لن يصاب بالملل !

ولكن ...

ــ هل الحب وحده يكفى ؟!.

ــ ربما !..

هكذا يسأل انيس منصور نفسه ، ثم يجيب بنفسه عن السؤال ..

وجوابه لا يؤكد شيئا ولا ينفى شيئا .. ومعناه أن « الحب » الذى يقدمه أنيس دواء للملل ، ليس فى الحقيقة دواء ، بل مجرد ماء ملون فى زجاجة !

فماذا اذن ؟.. أما من دواء للملل ؟!

يبدو انه لا علاج الا بنسف الاساس الفلسفى الذى يقوم عليه الملل ، فان الملل هنا مصدره فكرة الاخفاق وتساوى مصائر الاعمال .

الملل هنا مصدره اليقين بأن البشر محكوم عليهم باليأس .. بالحرية .. بالتوحد فى هذا الكون ذو النجوم البعيدة الهائلة ، والقوى الصامتة المخيفة !

وبدون تفجير الديناميت فى هذا الاساس الفلسفى ، لا يمكن أن يشعر أنيس بالشفاء من الملل ، مهما حاول فى حياته اليومية ان يشعر بانه لم يعد مريضا بالملل !.

انه الان يرفع شعار « الحب » فى حربه ضد الملل !
لا بأس !.

فلنطبق هذا الشعار على حب الرجل للمرأة ..

عندئذ نجد أن الحب غير ممكن فى ظل يقين الرجل بأنه مهجور ووحيد ولا شيء خارج ذاته يتشبث به ؟!

كيف والحال كذلك ، يتعلق الرجل بالمرأة ؟. كيف يحبها ؟!

ولنفرض انه احبها واراد الزواج منها ، فكيف يتسنى له ذلك ، وهو محكوم عليه بالحرية .. وكل قيد على حريته هو التزام ومسئولية وهم ثقيل فى هذه الحياة التى يتساوى فيها مصير النملة ومصير الفيل ؟!

الحقيقة ان انيس منصور حين نقش على غلاف كتابه « وداعا أيها الملل » لم يكن يعنى تماما ما يقول ..

لعله كان يريد أن يقول : « صباح الخير أيها الملل » .. أو « الى اللقاء أيها الملل » !

ومقالات أنيس منصور فى هذا الكتاب ، ليست بنات أفكاره وحده ، بل هى أيضا بنات أفكار الملل .

« حتى كلامى هذا ممل » !..

وهذا لم أقله أنا ، بل قاله انيس منصور فى مقالة من كتابه عنوانها « الحياة هى الملل » !.

سقوط الحائط ...

هتف أنيس منصور على غلاف كتابه بأعلى صوته : يسقط الحائط الرابع .. والحقيقة انه معذور فى هذا الهتاف ، لان كتابه هذا يشبه مظاهرة ضخمة من الافكار والآراء ، تريد أن تسمع صوتها للناس .

ويقول انيس فى احدى مقالات كتابه ان المرحوم الاستاذ العقاد كان جادا طول عمره .. « ولذلك فهو لا يتناول اى موضوع بتهويش او تهريج او خداع .. انه لا يخدع القارىء لان الخداع ليس من طبعه ، فهو صريح وهو واضح وقد عاش طول عمره يصارح نفسه ، ويوضح لغيره .. كل ذلك فى بساطة وفى اصرار » .

وهذه الكلمات تنطبق على أنيس منصور نفسه ، برغم ما يبدو من تناقضه معها أحيانا ..

ولعله كان يرى فى العقاد صورة مكبرة له ، فثابر على حضور ندواته فى داره بمصر الجديدة عشرين عاما ، بدات عندما كان أنيس تلميذا صغيرا فى كلية الاداب وانتهت وأنيس منصور كاتب مشهور .

ان أنيس منصور ظل فترة غير قصيرة متهما بالتهويش والتهريج والخداع والتلاعب بالافكار المبهمة .

ومازال الراى فيه كذلك حتى اليوم ، عند بعض الناس .. ولكنهم قليلون .

فمنذ اصدر كتابه « وداعا أيها الملل » وهو يدور حول نفسه ، غير قادر على الخروج من دائرته الفكرية .

وهو في كتابه الكبير « يسقط الحائط الرابع » يدور أيضا حول نفسه ، ويتشبث بأطراف افكاره ، وكأنه طفل تنتزعه الايدى الغريبة من أبويه .

هكذا يقال اليوم عن أنيس منصور ، وهكذا سوف يقال عنه غدا وبعد غد .. ما دام هنا وهناك نقاد من مختلف الاتجاهات .

الا أن النقاد الذين يفهمون أنيس منصور ويقدرونه يكثر عددهم بمرور الايام ، بينما يقل عدد النقاد الذين يلقون على افكاره نظرة سريعة غاضبة !.

فمنذ البداية الاولى كان أنيس منصور مثقفا من ابناء الشعب .. لم يتعلق في نشاته الفكرية بأفكار طبقة عليا ، ولا كتب شيئا يمجد به الفئات الممتازة اجتماعيا واقتصاديا ..

كان شعوره دائما نحو هذه الفئات هو ما يسميه « القرف » . بالمعنى العامي لهذه الكلمة العربية .. أي الاشمئزاز والنفور ورفض التعلق بهذه الفئات .

فالشيء الذى كان يبهر انيس منصور ، ومازال يبهره ، هو الافكار الرائعة ، والكلمات الرائعة التي تصاغ بها هذه الافكار .

لم يكن في الماضي يجد أفكارا رائعة عند الطبقات المستغلة والرجعية ، بل كان يجد روعة الفكر في الفلسفة التي تلقى نظرة شاملة على الحياة الانسانية وعلى الكون الفسيح الذى يضطرب فيه الانسان .. نظرة الى ذات

الانسان ، والى ما هو خارج ذات الانسان ، فى وقت واحد .

ولأن انيس منصور نشأ فقيرا ، فى بيت فقير وبيئة فقيرة ، لم يستطع ان يبحث عن الافكار الرائعة الشاملة الا فى الكتب التى يتاح له الاطلاع عليها .

وجذبته دوامة الافكار حتى غرق فيها ، لانه قرا الكتب فى عزلة عن الناس وضجيج العالم الفسيح ، فأصبحت الكتب عالمه الشخصى ، يتقلب فيه ، مديرا ظهره للعالم الذى يتقلب فيه الناس .

من هذه العزلة مع الاوراق والكلمات ، انبثقت فردية انيس منصور ، واخذت بيده طائعا او كارها الى مواقف فردية .

ولكنه فى مواقفه الفردية ، كان دائما مترفعا متوحدا كشجرة عنيدة فى صحراء واسعة جرداء .. لم يتعلق الا بأفكاره ، ولم يعرض على الناس غير هذه الافكار ، ولم يضع قلمه ولا فكره فى خدمة موكب صاخب ، بل وضع القلم والفكر دائما فى خدمة اشواقه الى معرفة ما لا سبيل الى معرفته من تعقيدات الحياة الانسانية والكون اللانهائى .

لهذا نجد كتابات انيس منصور فى جميع مراحل حياته ذات اساس فلسفى واضح .

كتاباته الاولى كانت مثقلة بفكرة الاخفاق الوجودية . ومعنى الاخفاق هنا ، هو التساوى التام بين مصير الاعمال الطيبة ومصير الاعمال الرديئة .. فالسعى وراء هدف عظيم يساوى فى اخفاقه النهائى مخاصرة امرأة ، او معاقرة كأس ، او الجلوس بلا عمل على الاطلاق .

الانسان مخلوق مهجور سواء كان هذا سعيدا او تعيسا .. لا يجد خارج ذاته ما يتعلق به .. انه لا يتعلق حتى بما يبحث عنه فى الكون الفسيح .. فكل شىء كلاشىء ..

وهو محكوم عليه بالحرية والتوحد فى هذا العالم .. وكل قيد يدخل على حريته فهو التزام ومسئولية .

وعلى هذا الاساس الفلسفى رفض أنيس منصور فى بداية حياته الادبية والفكرية قبل بضعة عشر عاما كل التزام حيال الطبقات المنهارة التى كانت تسيطر على بلادنا .

لم يقف فى صف هذه الطبقات ولم يكتب دفاعا عن انهيارها ، بل التزم حيالها بعدم المبالاة ، ثم بالنفور والكراهية والقرف .

ولما قال الزمن كلمته الحاسمة فى أمر هذه الطبقات بدأ أنيس منصور يشعر بأن عبء « القرف » قد خف عن كاهله ، وبدأت نظرته الشاملة الثاقبة الى المجتمع والكون ، تهديه الى اشياء جديدة .

وفى كتابه الجديد يشرح هذه الرحلة الطويلة فى مقالة بديعة يقول فيها « لقد تحدثت عن الضياع الذى يهددنى ، وكيف أننى انشغلت بنفسى عن العالم كله .. كيف حبست نفسى فى نفسى ، فى زنزانة هى أنا .. فكنت السجين والسجن والسجان معا .. وكيف اصطدمت بالناس لاننى لا أراهم ، لاننى أعمى باختيارى .. وقلت اننى مثل رواد الفضاء محبوس فى برميل من حديد يلف حول العالم .. والحقيقة هى أن الدنيا تلف وتدور ، واننى كنت جامدا فى مكانى ، وكل شىء جديد ، ويظهر من جديد ، لا أنا .. مللت كلامى .. مللت المعانى التى

تدور فى راسى ، فكل ما فى يدى علب من ورق ملون .. علب فارغة أرتبها واختارها وأبيعها وتبيعنى أيضا .. مللت هذا كله .. لقدعانيت كثيرا ، ومعاناة الازمة فى التي رفعتها الى مستوى التازم الذى هو بداية التنوير كما يضيء الفحم الاسود من شدة الاحتراق » !.

ولقد أضاء انيس منصور من شدة احتراق افكاره .

واستطاع أخيرا أن يفهم نفسه ويفهم ما هو خارج نفسه .. يفهم الحياة والمجتمع والكون ، قدر طاقة فهم الانسان ، بلا ادعاء .

ولن يستطيع ناقد أن يكتب فى نقد أنيس ما كتبه هو عن نفسه فى هذه السطور التى نقلناها عنه .. هذه السطور التى يقدم فيها الى قرائه نقدا ذاتيا مؤثرا بالغ الدقة والطلاوة .

لقد صبر أنيس منصور على مكاره الفلسفة حتى فتح عينيه وأدرك أن الفلسفة يمكن ان تكون مذهبا للعزلة ، كما يمكن ان تكون دليلا هاديا الى العمل .

وقد « اختار » أنيس منصور ان يتخذ من الفلسفة دليلا هاديا الى العمل وسط ملايين الناس ..

وفى هذا الكتاب يقول : « فى ظل الاستعمار والارهاب والقمع تختفى الحرية مع الطعام ، لان الطبقة الحاكمة ترى أن الحرية ترف .. وما دام أساس وجودنا هو الاحتياج ، ومادام الاحتياج نفسه يخلق تمزقا فى المجتمع .. هذا التمزق هو مبرر الصراع بين الطبقة التى لا تملك الضرورى والطبقة التى تملك الكماليات ، فلابد أن نفسر التاريخ تفسيرا طبقيا ، أو تفسيرا على أساس التناقض

والصراع .. ولا يمكن أن تتحقق حرية الانسان ما دامت الفوارق بين الطبقات واسعة » .

هكذا سقط الحائط الرابع أمام أنيس منصور ، وانتهت العزلة بينه وبين الناس الذين أحبوه دائما ، سواء كانوا مؤيدين لآرائه او معارضين .

ان أنيس منصور هو الكاتب الفنـان الذى احبـه كل قرائه ، وتعلق به الذين نثر عليهم الرياحين والذين قذفهم بالزجاجات الفارغة .

وكتابه « يسقط الحائط الرابع » اضافة هامة الى الفكر المصرى والعربى .

ومن المدهش أن راسه المثقل بالافكار يعطينا أفكارا غاية فى الخفة .. والسبب خفة يده فى الكتابة .

ان خفة يد أنيس منصور فى الكتابة تشبه خفة يد النشال فى ممارسة عمله بين جيوب الناس .

ولكن خفة يد أنيس ليس مرجعها انه ينشل افـكار الاخرين ، بل مرجعها أنه ينشل افكاره الخاصة من راسه .

وبما أن رأسه ثقيل بما يحتويه فان يده تضطر الى استعمال الخفة فى استخلاص الافكار الخفيفة من بين ركام الافكار ذات الوزن الثقيل !!

شجرة العائلة الوجودية

بعد غلاف الكتاب مباشرة ، تواجهك صفحة بيضاء يتمدد فيها طولا وعرضا رسم اخطبوط كبير .. لا تجزع فانه ليس أخطبوطا بالضبط ، وان كان يبدو كذلك .. تستطيع اذا تأملته جيدا أن تكتشف انه رسم شجرة عظيمة ذات فروع ضخمة كثيرة ..

ليست هذه شجرة عائلة الاستاذ عبد المنعم الحفني مؤلف كتاب « معنى الوجودية » .. وانما هى شجرة العائلة الوجودية ذات الحسب والنسب والجاه القديم.

واذا تتبعنا الشجرة من جذورها تحت الارض ، وجدناها تبدأ بالحكيم سقراط ، ومعه فى الجذور حكماء وفلاسفة آخرون ، تحتل اسماؤهم جذور الشجرة .. ما عدا جذرا واحدا أبيض خاليا من الاسماء .. لعل الذى رسم الشجرة خجل أن يكتب فوق هذا الجذر اسم أصحابه « السوفسطائيين » فقد كان السوفسطائيون من جذور الوجودية الاولى ، ولكن يبدو أن الوجودية الاخيرة لا تريد أن تعترف بهم فى « شجرة العيلة » !.

ثم نعلو فوق جذع الشجرة حتى نصل الى رجل اسمه كيركجارد ، وهو قريب من عصرنا نسبيا لانه ولد سنة ١٨١٣ ومات سنة ١٨٥٥ .

فاذا اقتربنا من عصرنا أكثر التقينا بالفيلسوف المجنون

نيتشه .. ثم نقترب اكثر واكثر فنقابل المجنون الاخر .. هايدجر .. وكان من ثمراتهما مجنون عالمي ثالث اسمه أدولف هتلر .

لم يكن هتلر يفهم شيئا فى الفلسفة الوجودية .. كان مجنونا فقط وصديقا لافكار نيتشه وهايدجر .

وأخيرا .. نبلغ عصرنا ، فنسمع كلمات جان بول سارتر ، وهو جالس على أحد الفروع العليا .

هذه هى شجرة الحسب والنسب للاسرة الوجودية العريقة كما رسمها الاستاذ الحفنى فى صدر كتابه الذى خصصه للتعريف بأهم فلاسفة الوجودية وأهم افكارهم .

والتعريف بالوجودية وأبطالها ، ليس عملا جديدا فى أدبنا العربى الحديث ، فقد غرق القارىء العربى فى السنوات العشرين الأخيرة فى سيل الكتب المترجمة والمؤلفة عن الوجودية .

اشهرها كتاب عنوانه « هذه هى الوجودية » صدر عن بيروت فى الخمسينيات مترجما عن الفرنسية ..

ومثله فى الشهرة حينذاك ، كتاب سارتر « الوجودية فلسفة انسانية » وكتاب جان كانابا فى الرد على سارتر « الوجودية ليست فلسفة انسانية » .

وفى مصر لم يقصر الدكتور عبد الرحمن بدوي فى التاليف عن الوجودية منذ عصر السوفسطائيين وسقراط الى عصرنا .. وكان له فى الاربعينيات كتاب مشهور عن نيتشه ، قبل أن يسمع القارىء العربى شيئا عن الفلسفة الوجودية .

ولا ننسى الشذور الصحفية التى يكتبها انيس منصور حول الوجودية بطريقته المبتكرة ، فقد اسهمت هذه

الشذوذ فى عقد تعارف بين القارىء العربى والفلسفة الوجودية .

ثم يجىء عبد المنعم الحفنى فى الزمن الأخير ، فيرفع راية الوجودية خفاقة ، ويصبر على البلوى فى سبيلها كما صبر سقراط وكيركجارد على بلوى الزمان !

وللحفنى حوالى عشرين كتابا مؤلفا ومترجما فى الفلسفة الوجودية وقضاياها المعقدة والمفهومة .

وكتابه « معنى الوجودية » أصدره الحفنى وعلى غلافه رسم امرأة عارية مصلوبة على صليب أسود يحف به لون أحمر صارخ كلون الدم .

وفى الداخل – كما أسلفنا – شجرة الاسرة الوجودية التى تمتد أكثر من الفى سنة !!

والحقيقة انها شجرة ضخمة جدا ، بجذورها وفروعها، ولكنها تفتقر الى الاوراق الخضراء ، تلقى على الارض ظلالا يفىء اليها الناس المتعبون ..

فمن سوء حظ شجرة الاسرة الوجودية ان الاستاذ الحفنى رسمها بلا أوراق .. مع انه لو تأمل اية شجرة لأية أسرة ، لوجد أسماء الاجداد والابناء والاحفاد مكتوبة على أوراق الشجرة لا على أغصانها الغليظة العارية !.

فنقترح عليه أن يستدرك هذا الخطأ الفادح ، فى الطبعة الثانية من كتابه فيرسم ورقة فى الشجرة لكل فيلسوف، من عهد سقراط الى عهد سارتر .. وبهذه الاوراق الكثيفة تصنع شجرة الوجودية ظلالا للجالسين تحتها فى صيف الفلسفة .

طبعا .. يريد الحفنى أن يستميلك الى الوجودية ، فكتابه يجيب عن سؤال تردده بينك وبين نفسك كلما

سمعت عن المفارقات التى يمارسها بعض الناس باسم الوجودية .

انك ربما سألت نفسك : ما هى هذه الوجودية التى يتحدثون عنها ؟!

والفصل الاول من كتاب الحفنى يجيب عن هذا السؤال الهام بالتفصيل .

فالوجودية ـ كما ينقل الحفنى عن سارتر ـ هى فلسفة متفائلة ، ومذهب للعمل ، ولا يمكن اتهامها باليأس الا عن سوء نية !!

واذن فان سارتر نفسه سيىء النية ، لانه أكد فى كتابه « الكينونة والعدم » ان الانسان مكتوب عليه اليأس ، لأنه يكتشف ان جميع الاعمال الانسانية تتساوى فى المصير ، فسيان أن تعاقر الخمر فى الحان ، أو تتصدى للنضال فى سبيل الشعب !!

والحفنى طبعا لا ينقل هذه الكلمات من كتاب الكينونة والعدم ، ومن حسن حظه أن هذا الكتاب يندر وجوده فى أيدى القراء المصريين ..

ومعروف أن سارتر لم يثبت على كثير من آرائه الوجودية ، ولابد أنه عاد فى الاونة الاخيرة عما قاله فى كتاب « الكينونة والعدم » فقد مضى على هذا الكتاب اكثر من عشرين عاما تغيرت فيها الدنيا .. وتغير سارتر تبعا للدنيا ، الا أن آراءه القديمة فى الوجودية كمذهب لليأس والاخفاق ، تبرر اتهام الناس لها باليأس ، بدون اية نية سيئة يضمرونها .. لان مصدر الاتهام هو سارتر نفسه .

والاستاذ الحفنى، يحاول أن يجعل من الوجودية تيارا

فكريا عربيا ، يتفق والميثاق الوطنى .. فالوجودية تفسر الحياة والكون تفسيرا شاملا كما تفسرها الماركسية مثلا.

واذا كان من الممكن النظر الى الماركسية فى ضوء الميثاق الوطنى ، فلماذا لا يكون ممكنا النظر الى الوجودية فى ضوء الميثاق الوطنى ، وبذلك يدخل الفكر الوجودى حياة الامة العربية كدليل للعمل ؟!

ولكن كيف ؟!

ان العرب يحاولون جمع شملهم من المحيط الى الخليج .. ولم تقع فى التاريخ القديم ولا الحديث محاولة لجمع شمل أمة طبقا للافكار الوجودية .. فهل تقع هذه المحاولة فى المستقبل ؟

يقول الاستاذ الحفنى فى معرض حديثه عن الفيلسوف الوجودى النازى هايدجر انه كان يرى فى الثورة الالمانية — ومعناها هنا الحزب النازى — تعبيرا عن مذهبه الفلسفى .. « فالايديولوجية الالمانية كما كان يمثلها هتلر كانت أيديولوجية خلاقة تكاد تستقى أصولها من كتاب هايدجر — الوجود والزمان — ويكاد هتلر ان يكون تجسيدا حيا للبطل المفرد عند هايدجر » .

هذا هو التطبيق العملى الوحيد لفرع من الوجودية.. والنتيجة : هتلر والحزب النازى والحرب العالمية الثانية وتمزق الامة الالمانية !

والاستاذ الحفنى يدير المناقشات فى كتابه كله حول الماركسية والوجودية .

وبما أن حروف كتابه عربية ، فكان الاجدى لقارئه الا يقتصر على الماركسية والوجودية ، لان النزاع بين هاتين الفلسفتين ، ليس هو الشغل الشاغل للامة العربية الان .

فليس مطروحا على الامة العربية الان ان تختار بين الماركسية والوجودية ولا يوجد ادنى دليل على أن الامة العربية ستواجه ذات يوم اختيارا من هذا القبيل .

ومع ذلك ، فالامة العربية متفتحة لكل الافكار ، تطالع كل شيء ، ولا تحجر على شيء .

وكتاب الحفني عن الوجودية ، برغم انحيازه اليهـا انحيـازا متعنتا ، يسـهم فى تنوير القـارىء العربى فى الوجودية وقضاياها ، اذا طالعه بتأن وانتقاد .

صلاح عبدالصبور ..
والجرى بين الشعر والنثر

الكتاب عنوانه « أصوات العصر » .. ولكنك لا تسمع فيه صوت عصرنا وحده ، كما يوحى العنوان ، بل تسمع اصداء عصور طويلة عاشتها مجتمعات كثيرة من عهد اليونان والعرب القدماء ، الى عهد مارلين مونرو .. أى عهد أمريكا كبيرة أثرياء العالم الآن .

مؤلف الكتاب شاعر مجدد ، ترك التدريس واشتغل بالصحافة ، ليعيش على مقربة من البيئة الادبية ، لان الادب ما زال فى بلادنا يرتزق من بلاط صاحبة الجلالة ، كما كان الشعراء قديما يرتزقون من ساحات الخلفاء والملوك .

ولكن الاشتغال بالصحافة هو الشرك الذى يقع فيه الشعراء والادباء ، خادعين انفسهم أو مخدوعين بعوامل اغراء وفتنة كالسراب .. ثم تضطرهم دنياهم الى الاستسلام ، ولزوم المقام الشريف الذى دخلوا فى خدمته .

وبعد ذلك تتكسر ملكاتهم الادبية كحروف مطبعة اليد القديمة .. وقليل منهم من يستطيع حماية مواهبه الادبية من الغرق فى الطوفان .

وقريب من هذا ما حدث للشاعر صلاح عبد الصبور مؤلف كتاب « اصوات العصر » .

فكتابة مجموعة مقالات صحفية .. يغلب عليها الروح الادبى ، ولكنها مجرد مقالات صحفية ، كمعظم المقالات التى يكتبها أدباء جيلنا الآن .

والحقيقة ان صنعة الصحافة تبتعد عن صنعة الادب يوما بعد يوم .. فى الماضى كان الصحفيون عندنا هم ـ غالبا ـ ادباء .

ثم كان الادباء هم غالبية الكتاب اللامعين فى صحافتنا .. ثم أصبحت الصحافة خبرا وصورة ولهاثا متواصلا بين قارات الارض .

واليوم .. يكتب الادباء القلائل أدبهم فى الصحف والمجلات كموضوعات صحفية ، ويتقهقر الادب المحض الى مجلات قليلة جدا ، شبه مجهولة .

الا أن الكاتب المثقف يستطيع أن يكتب شيئا فيه روح، وله طعم ورائحة .

وهذا ما فعله عبد الصبور فى كتابه القيم « أصوات العصر » .. جمع فيه أشتات مطالعاته فى الادب العربى والآداب الاجنبية .. كتب فيه عن المتنبى والمعرى وشوقى والمازنى وشيكسبير وديكنز وتشيكوف .. تحدث فيه عن المسرح والسينما والادب الوجودى .. عن جورج أبيض وجيمس دين وبريجيت باردو وفرانسواز ساجان، ومذاهب أخرى وشخصيات كثيرة .

كل ما قرأ عنه ، كتب عنه ، ليقرأه الناس . كل ما تأمله وفكر فيه أرسله على الورق ، بسهولة وايجاز .. ببساطة المتذوق ، لا بتعمق الناقد .. يكتب جملة بقلمه ، ويترجم جملة .. يؤلف سطرا ، ويستعير سطرا من كتاب .

وأفكاره بجملتها ، تقدمية مستنيرة .. حتى فى موقفه

من العامية والفصحى ، لم يتعصب للعامية ، مع انه تزعم سنوات طوالا فرقة من الشعراء الجدد ثارت على الشعر العربى ، وعلى لغته .. حتى خيل الى قارئيهم انهم دعاة لهجات عامية ، لفرط عامية اشعارهم ، وهبوط معناها ومبناها .

وبرغم الطابع الصحفى لمقالات عبد الصبور فى كتابه « أصوات العصر » نستطيع ان نقول بغير حرج ان عبد الصبور — كاتبا — يبلغ من اقناعك وارضائك اكثر مما يبلغ باشعاره .

فقد كانت اشعاره — فيما اتصور — مرحلته الاولى فى التعبير ، ثم تخطاها الى مرحلة التعبير بالنثر ، فأصبح أعرب بيانا ، بل أصبح فى النثر أشعر وأعلى فكرا منه فى الشعر ..

ان شعره التقليدى الذى التزم فيه الأوزان والقوافى ، لا يثقل فى الميزان اكثر مما يثقل شعر شاعر عادى من متوسطى شعراء عهد بنى أيوب ، أو شعراء الثلاثينيات من القرن العشرين .

فلهذا ثار على الاوزان والقوافى ، ظانا ان فى ثورته مهربا الى امكانات فى التعبير ، أرحب وأسهل .

ولو حاكمنا شعره التقليدى الى مقاييس الاقدمين الذين قالوا :

الشعراء فاعلمن : أربعه
فشاعر يجرى ولا يجرى معه
وشاعر يثبت وسط المعمعه
وشاعر من حقه أن تسمعه
وشاعر من حقه أن تصفعه

.. لو حاكمناه الى هذه الارجوزة الخبيثة لكان من حقه ان يسمعه الناس ، لا اكثر ولا اقل .

الا أن الانصاف يقتضى أن انوه بأن هذا الرأى لا يقره المعجبون بشعر عبد الصبور من الجيل الجديد ، وهم كثيرون .. وهو بهم فرح فخور .

وهو فيما يكتب ناثرا لا شاعرا ، يجرى بقوة وذكاء وثقافة .. وليس الجرى فى هذا الميدان أمرا هينا .. انه لأشق كثيرا من الجرى فى ميدان الشعر الجديد ! .

حوار مع سارتر ورسل

الاول من نوعه فى أدبنا الحديث .. صغير الحجم ولكنه ذو أهمية أدبية وفكرية عالية .. لا يقدم لطفى الخولى فى هذا الكتاب حوارا تقليديا من قبيل الاحاديث الصحفية التى يلتقى عليها الصحفيون ونجوم السياسة والفكر والفن والادب ، وانما يروى لنا مساجلتين فكريتين غير مسبوقتين ، بينه وبين اثنين من أشهر المفكرين فى العالم فى أواخر الستينات ، أى بعد هزيمة ١٩٦٧

يبدو الكتاب من عنوانه « حوار مع برتراند رسل وسارتر » كأنه كلام متبادل مع السجاير والاقداح بين مؤلفه والفيلسوفين الشهيرين ، ولكن الثلاثة أصدقاء ، والعمل من أجل السلام العالمى هو ميعادهم وملتقاهم من حين الى حين .. والصداقة بينهم تضفى على الكتاب جوه الفكرى والوجدانى الخاص ، وتدفع الحوار الى أبواب لا تحتبس عندها الالسنة وان احتبست بعض الافكار فى الصدور .

والمساجلة الفكرية التى يرويها الكتاب تشبه فى بعض فصولها الحرب السجال ، لان محورها الامة العربية ، وبخاصة قضية فلسطين ، وعلى الاخص قضية الايام

الستة المائلة بنتائجها وتبعاتها الثقال امام العرب اجمعين . !

يقول لطفى الخولي : « ليس هناك بديل عن الحوار اذا أردت ان تكسب لقضيتك مناصرين ومتفهمين من وزن رسل وسارتر ، فان ايمانك بعدالة قضيتك لا يكفي لكي يراها الآخرون عادلة .. ونحن نقع في خطأ فادح اذا رفضنا الحوار مع الغير لمجرد أن هذا الغير قد أخذ فى يوم ما موقفا معاديا منا ، أو أن له رأيامسبقا بالنسبة لنا أو لعدونا لا نقره عليه ، أو أنه لا يتفهم قضيتنا على النحو المطابق مطابقة شاملة لفهمنا لها . . ان هذا الرفض — فوق أنه عاطفى لا عقلى — يعنى تأمين كسب العدو لهذا الغير من ناحية ، كما يعنى تقوقعنا وجمودنا عن الحركة من ناحية أخرى ، وبالتالى فهو غير علمي وغير ثورى معا » .

وهكذا ، جريا وراء الحوار مع « الغير » قضى لطفى الخولى يوما فى مقاطعة ويلز البريطانية يحاور برتراند رسل فى بيته الريفى المنعزل .. ثم قضى يوما أو يومين — بعد عامين من لقائه مع راسل — يحاور جان بول سارتر فى بيته — ومعه صاحبته سيمون دى بوفوار — في باريس .

كان حواره مع رسل قبل عدوان يونيو بسنتين ، وكان حواره مع سارتر بعد العدوان بأيام .. وفرق كبير بين رائحة البيت الريفى الذى يسكنه راسل ، والبيت الباريسى الذى يأوى اليه سارتر .. ليس الفرق بين رائحة الريف البريطانى ورائحة باريس ، بل الفرق بين رائحة رسل ورائحة سارتر .. أعنى الفرق بين رائحة الفكر عند هذا الفيلسوف ، ورائحة الفكر عند ذاك .

فى بيت رسل تشعر انك حيال قطعة من تاريخ التسوغ الانسانى كله .. شيخ حكيم صادق الضمير ، تتمثل فى حياته المديدة محاولة الانسان المستميتة لاقرار العدالة ، والتجرد من الهوى الى الغاية التى يسمح بها عجـز الانسـان .

وفى بيت سارتر تحس انك أمام فيض من الفكر والحيرة والرغبة فى المعرفة والعدالة ، ولكن رائحة الرياء تختلط برائحة البحث عن الحقيقة ، وخطرات الوساوس تزاحم موضوعية العقـــل ، وتتبرج المعـــانى الدميمـــة فى أثواب الالفـــاظ الجميلـــة ، وبعض المعـــانى الجميلة تمشى عارية .. اما الافاق الكونية العلوية المتوهجة فى قشرة الدماغ وعلى سن القـلم ، فانهـا تخبو يائسـة كالجمرات الضئيلة المغلوبة على أمرها فى أطراف سجاير الفيلسـوف !.

فى بيت رســـل ، وحول أقداح الشاى ، والحـــديث طيب نقى كهواء الريف البريطـــانى ، قال رســـل فى براءة :

ـ لماذا لا تحلون مشاكلكم مع اليهود سلميا ؟!.

ورد لطفى :

ـ ليس بيننا وبين اليهود مشاكل من اى نوع حتى يمكن القول بحلها سلميا أو عسكريا .

ارتسمت الدهشة ملء أخاديد الثلاثة والتسعين عاما ، على وجه الشيخ برتراند رسل ، وقال :

ـ كيف ؟.. الا تعادون اليهود وتتسلحون لادبادتهم ؟. الستم بصراحة معادين للسامية ؟!.

سؤال ساذج يدل على أن رســـل الذى أحاط علمـــا بالكثير ، لا يعرف من قضية العرب مع اسرائيل الا الزاوية الملفقة التى تبرزها الدعاية الصهيونية المحمومة .

وبطبيعة الحال بذل لطفى الخولى جهده فى شرح قضية فلسطين وكيف أغار عليها اناس قادمون من خارجها واغتصبوها وطردوا أهلها وساموا الخسف والعذاب من بقى منهم .. حتى قال رسل فى ذهول :

ــ هذا تصوير جديد للموقف .. كلام اسمعه لاول مرة .. ولكن ماذا عن اليهود فى اسرائيل الآن بعد أن اقاموا وكونوا شعبا منذ عام ١٩٤٨ ؟

قال لطفى :

ــ اذا كان هناك شعب يمكن أن « يفبرك » فى سنوات قلائل على هذا النحو فان معنى ذلك أن نتشكك فى التاريخ وقوانينه العلمية . لقد وفد وما زال يفد على فلسطين مهاجرون مغامرون من جميع أنحاء العالم تلهبهم المشاعر العنصرية . هؤلاء لهم أوطان جاءوا منها . أما اليهود الفلسطينيون فلهم حق البقاء مع كل عرب فلسطين كمواطنين .

ومسح رسل وجهه براحته وقال :

ــ المشكلة معقدة !

هذه هى خلاصة الحوار الطلى المتسم بالصدق الذى جرى قبل العدوان بعامين ، وبدا فيه رسل ــ صادقا بريئا ــ قليل الالمام بقضية فلسطين ومشكلة الامة العربية مع الغرباء الغاصبين .. ولكنه كان واضح الرغبة فى معرفة الحقيقة ، وفى اي جانب تقف الحرية ، وفى اي جانب مضاد يقف جلادوها .

ان رسل الذى يرى ان الانسان يحيا بلقمة العيش ولقمة الحرية ، كان واضح العذر فى موقفه ، ولكنه كان واضح الرغبة فى تعديل موقفه بما يقتضيه كفاحه الطويل من أجل لقمة العيش ولقمة الحرية لكل الناس .

فماذا عن سارتر ؟! ..

منذ الكلمة الاولى فى الحوار ــ وقد جرى بعد أيام من حرب يونيو وما ارتكبه فيها جنود موشى ديان من فظائع بربرية شنعاء ــ كان سارتر يسبغ عطفه ورعايته على اطفال اسرائيل ونسائها ، كأنما الذين عصفت بهم جرائم الفتك والهتك هم أطفال اسرائيل ونساؤها ، لا أطفال العرب ونساؤهم ..

ولا جدال فى أن سارتر على حق فى ابداء عطفه على الاطفال والنساء ، وقد زعق قبل عشر سنوات فى كتابه المشهور « عارنا فى الجزائر » زعقته المدوية : « هل نستطيع ان نسمع صراخ طفل معذب بدون ان نشعر بالهول والارتعاد ؟! » ..

ولكن سارتر سمع ملء أذنيه الكبيرتين عشرات الالوف من الاطفال فى فلسطين والمناطق التى احتلتها اسرائيل ، فلم يشعر بالهول والارتعاد ، وانما شعر بتزايد حبه وولائه لاسرائيل ، وسجل هذا الحب والولاء فى بيانات عالمية مذيلة بامضائه !.

هذا الموقف المتناقض كان موضوع الحوار الذكى الشامل الذى اداره معه لطفى الخولى .. وكانت اجوبة سارتر ــ عند تعريتها من الفاظها ــ تنم عن تعاطف قلبى عميق مع اسرائيل .. حتى انه عندما ذكر ارتباط اسرائيل بالاستعمار الامريكى ابدى اسفه لهذا الارتباط الوثيق الذى لا غنى عنه لاسرائيل ، كأنما الطبيعى عند سارتر عدم ارتباط اسرائيل بالاستعمار ، وكأنه يشير من بعيد الى الاكذوبة الصهيونية التى تقول ان اسرائيل هى « منارة الشعوب » فى الشرق الاوسط .. وهو يرى بطبيعة الحال ان منارة الشعوب ينبغى ان تجتهد فى ستر

ارتباطها العضوى الذى لا انفصام له بالاستعمار العالمى ..
ومما له دلالة لا تدحض في هذا المقام أن سارتر ـ بدون ان يتدبر كلامه ـ قال ان اثنى عشر مليون يهودى يقيمون خارج « وطنهم » .. أى انه يرى ان كل يهـود العالم مواطنون اسرائيليون .. وهى وجهة نظر غلاة الصهيونيين الذين يحاول سارتر أن يقول أنه ليس واحدا منهم ..
ان الفرق بين رسل وسارتر ، هو ان رسـل لا يعرف الحقيقة ، أما سارتر فيعرفها حرفا حرفا ، ولكنه يواجهها بتجاهل العارف . والذى يطالع كتاب لطفى الخولى يدرك تماما أن سارتر لا يخفى عليه من القضية الفلسطينية شيء ، لانه كان دائما شديد الاهتمام بمعرفتهـا بوصفه نصف يهودى ـ من ناحية مولده واصله ـ وبوصـفه ثلاثة ارباع صـهيونى على الاقل بحـكم ولائه وعاطفته وموقفه .. وبياناته المذيلة بامضائه ! ..
وطوال الحوار الذى كان لطفى الخولى محصورا فيه بين جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار ، لم يدع سـارتر حيلة من حيل ذكائه لم يلعب بها لاقناع « أصدقائه العرب » بأنه وان كان يؤيد اسرائيل ، لكنه يختلف مع قادتها فى جملة نقاط .. ولا فرق هنا بين سـارتر وأعضاء الوزارة الاسرائيلية ، لانهم مختلفون بعضـهم مع بعض ، بنفس الطريقة التى يختلف بها سارتر معهم ! .
قد يقال ان الاقرب الى الحـكمة تغليب حسن الظـن بسارتر ، ولسنا ضد تغـليب حسن الظن ، لكن تاريخ سارتر لا يشجعنا ، وليته كان يشجعنا فمن مصلحة العرب ان يكسبوا ذوى المكانة الفكرية فى العالم أمثال سارتر .
ان سارتر « يحاكم » العدوان الامريكى فى فيتنام ، وهو

يكسب من وراء ذلك ولا يخسر ، لان قضـــية فيتنـــام المناضلة قضية نشيطة تحف بها عناية الرأى العام العالمى وحماسته ، وقد كان سارتر وما زال يؤيد دائما كل قضية يحتضنها الرأى العام العالمى ، وصورة ســـارتر هنا هى صورة الحريص على جذوة شهرته حتى لا تنطفىء ابدا ٠٠ فمن الحق ان فيتنام لن تخسر فى فرنسا شيئا ذا بال اذا لم يؤيدها سارتر ، أما سارتر فانه يخسر فى فرنسا شيئا كثيرا اذا لم يؤيد فيتنام ، وليست قضية فلسطين ـ مع الاسف ـ كذلك ! ٠٠

وكلنا نعرف ان سارتر هو أكثر « الفلاسفة » حيرة فى عصرنا ، وربما كان أكثرهم انتقـــالا من رأى الى رأى فلم يثبت الا على قليـــــل من الاراء ، فى مقـــدمتها آراؤه الصهيونية ٠٠

كان سارتر فى عهد الاحتلال النازى لفرنســا يبرر هذا الاحتلال من خلال مقولاته الفلسفية ، وقد ســجل عليه كتابه الكبير « الكينونة والعدم » هذه المقولات المشبوهة ٠

وبعد الحرب العالمية الثانية انتقل ســـارتر فى خطوة واحدة من صفوف النازى الى صفوف اليانكى ، ووقف امام قادة حلف الاطلنطى يخطب ويتلقى تصفيقهم ٠٠

وقد كان وما زال يزعم انه بفلسفته الوجـودية يمتلك ناصية الواقع المادى ، ولكن فلسفته أثبتت انها لا تصـمد لاى احتكاك بواقع الحياة خارج الحلقات الفلسفية ٠

واذا كان الثوب الذى يرتديه الان هو ثوب المناضل فى سبيل الحرية والاشتراكية والسلام ، فما أهونه ثوبا اذا كان ثمنه كلاما فقط ، لا عملا وموقفا صحيحا يصمد لـكل التجارب ٠

ان جوهر فلسفة ســـــارتر الوجودية يقوم على اساس فكرة الاخفاق التام لجميع البشر ، وتساوى مصاير أعمالهم جميعا ، فالسفاح الفاشستى مثل الداعية الاشـــتراكى ، والارهابى الاسرائيلى الوالغ فى الدماء مثل المناضل العربى المدافع عن وطنه ..

معذرة .. فان الارهاب الاسرائيـلى هو الاقرب الى قلب جان بول سارتر .. وفكرة الاخفاق التام تجوز على جميع البشر ، الا على البشر المختارين فى اسرائيـل .. وهذا هو التعديل الوحيد الذى يسمح جان بول سارتر بادخاله على فلسفته الوجودية !

اما حواره مع لطفى الخـــولى فقد كان ذكيا ممتعا من الطرفين ، ولكنه فى حصـــاده ومحصـــوله العملى يشبه « اللاشىء » الذى يتساءل عنه تلاميذ ســـارتر قائلين فى تفلســـف لا طائل تحته : « لماذا يوجـــد شىء ، ولا يوجد اللاشىء ؟! » ..

وقد تردد العرب وتقاعسوا عشرات السنين حتى أصبح اللا شىء شيئا فوق أرض فلسطين .. فما العمل ؟!

البعض يفضلونها ناقصة

على الاقل هذا هو نصف الرواية التى شرع يكتبها الروائى المشهور المرحوم محمد عبد الحليم عبد الله قبل وفاته ثم عاجله الموت قبل ان يكتب نصفها الاخر ، ودون ان يضع عنوانها ، فقد كان ـ رحمه الله ـ معتادا ان يضع العنوان بعد الفراغ من طقوس ميلاد الرواية ، كأنها طفل يتأنق أهله أو يتمهلون فى انتقاء اسمه فلما صدرت الرواية اخيرا سماها ناشروها « قصة لم تتم » ٠٠ ولو تمت كتابتها لكان من الممكن ـ بل من الارجح ـ ان تحمل هذا الاسم ذاته ، لانها تتعلق بالحرب بين العرب والصهيونيين ، أى برواية لم تتم فصولا ، وقد كان الستار مرفوعا عن مسرح هذه الرواية الطويلة الدامية عندما كتب عبد الحليم عبد الله قصته عنها أو نصف قصته ـ باعتبار عدد الصفحات ـ ومازال الستار مرفوعا ، والايام كلها متعلقة به مرفوعا ومنسدلا على السواء ! ٠٠

القصة التى لم تتم تدور حول انسان محارب ضاع فى حرب ١٩٦٧ ٠٠ ولو تمت القصة لاستمرت حتى نهايتها تدور حول هذا الانسان المحارب الباسل الذى ضاع فى الحرب أو ضيعته الحرب ٠٠ أو اضاع نفسه فى الحرب ٠

انتظرته زوجته منى المنشاوى الصحفية الكاتبة اللامعة العصرية الافكار والسلوك ، حتى انقضى عام ١٩٦٧ واوشك عام ١٩٦٨ ان ينقضى أيضا ٠٠ ثم جاءها من يقول لها :

ـ ان ما سمعته هو ان زوجك كان من الفرقة التى توغلت فى أرض فلسطين أول أيام القتال ، وانه بحكم الموقف كان فى نشوة النصر ٠ كان يدوس على أرض انت تعرفين قدرها ، لكنه فجأة سمع نداء الراديو يأمر بالرجوع ولم يطيعوا ، وتكرر النداء ، وكان لابد من الرجوع ٠٠ ونهره ضابط كان قائدا له : الا تسمع ٠٠ فاذا بصبرى ـ

زوج منى ـ يصاب بحـــالة هستيرية • رمى كل أوراقه وبعض ملابسه ، وأصبح فى حالة كأنها حـلم ، كمن يمشى وهو نائم •• ولما رجع ورجعـــوا الى مواقع مدفعيتنا فى الجنوب الغربى رأى جماعة بانتظارهم ، وبدأوا يتحركون نحو الشرق • لكن صـــبرى رفض ركوب العربة فحملوه ومشوا •• وما كادت الســـيارة تمضى بضعة كيلو مترات حتى ضربت فمات من مات واستأنف السير من اراد •

قالت منى المنشاوى للرجل الذى حدثها بهذه الكلمات :

ـ انا شخصيا لم استبعد انه موجود ؟ ••

ولم تنم طوال الليل • « كانت تطل على الحديقة الخلفية من نافذة الحمـــام حيث علقت فوطة كبيرة كان يحبهـا صبرى ، ووضعت قطع الصابون وشفرات حلاقة وفرشـة اسنان ومعجونا جديدا • واحضرت مع هذا علبة ســجاير من النوع الذى كان يدخنه ونفثت حلقـــاتها حول هـذه الموجودات حتى خيل اليها انها تسمع وقع اقدامه أو غطيط نومه فى حجرة النـــوم •• كانت تنظر من وراء الزجاج للعالم الخارجى ، وتدحـــرج الامل البائس الذى جاء به الليلة رسول • تدحـــرج هذا الامل من ركن الى ركن فى قلبها » !

هذا هو ـ باختصار ـ محـــور اخر رواية كتبها عبد الحليم عبد الله بعد سلسلة غير قصيرة من الروايات بدأها بجهد عظيم يستحق التقدير حقا من مشارف فن المنفلوطى ، وانهاها عند مشارف فن الرواية الحديثة بقصته هذه التى لم تتم •

وخلال هذه المسيرة الحافلة كتب روايته « لقيطة » التى ذاع صيتها حين فازت بالجـــائزة الاولى من مجمع اللغـــة

العربية قبل عشرين عاما ، ثم اتبعها برواياته الشهيرة : « بعد الغروب » و « شجرة اللباب » و « شمس الخريف » و « غصن الزيتون » و « من أجل ولدى » •• الى « الباحث عن الحقيقة » •• و « البيت الصامت » •• ثم « للزمن بقية » والروايات الثلاث الاخيرة تمثل محاولاته الصادقة للخروج من صدفته القديمة التى استكنت فيها لؤلؤته طويلا • وقد نجحت هذه المحاولات نجاحا واضحا فى قصته الاخيرة التى لم يتح له القدر أن يستكمل بها نجاح محاولاته ويكتب لنفسه شهادة اتجاه جديد ـ أو اتجاه قوى النزعة الى الجديد ـ بالنسبة الى اتجاهه الماضى ، وان لم يكن جديدا كل الجدة بطبيعة الحال ، اذ قيس الى اتجاهات معاصريه المغامرين والرواد من الروائيين المصريين والعرب ، فضلا عن العالميين وأشباه العالميين.

ان الرواية فى مصر والبلاد العربية تحولت الى شعر ورؤى ولمسات واقعية وميتافيزيقية وحواريات عاقلة ومجنونة ، بعد ان حفلت منذ بداية نشأتها بالاحداث والسرد التقليدى المنطقى والبناء الهندسى دورا فوق دور وحجرا فوق حجر ، ولبثت قائمة على هندستها هذه عدة أجيال •

وليس هذا التحول فى الرواية المصرية والعربية معزولا عما ينتاب الرواية العالمية ، فالحقيقة انه يكاد يكون صدى لما ترتعش به الرواية العالمية من تطورات وانقلابات تبلغ احيانا حد الشعوذة التى لا يصدقها العقل ولا يرضاها الذوق الذى صنعته عوامل تاريخية عميقة ••

وقد تجنب عبد الحليم عبد الله السير فى هذا الطريق الى غايته ، واقتصر منه على ما تيسر من خطوات ، بعد ان

سار خمسة وعشرين عاما فى الطـــريق المضاد ، فكانت خطواته هذه على تواضعها فتحا جديدا فى فنه ، لو عاش ـ رحمه الله ـ لاضاف اليه فتوحا أخرى تدنيه من فن الرواية فى نسقه الاكثر جدة وغرابة وتأثيرا ٠

ولكن هكذا كان ، وليس فى الامـــكان الا ما كان ، او ابدع مما كان ـ على حد قول الامام الغزالى ـ وقد ذهب عبد الحليم عبد الله بدون أن يســـتكمل روايته الاخيرة التى افصحت عن اتجاهه الجديد ، فما العمـــــل الان فى هذه الرواية الناقصة السطور ؟! ٠٠

اتبقى ناقصة ، دالة بنقص صـــفحاتها وتطفيفها على النقص والتطفيف فى حياة صاحبهـا الذى غاله الموت وهو يعد نفسه لمرحلة جديدة من فنه ؟ ٠٠ ام يتقـــدم من بين محبيه وعارفى فضله من يرى فى نفسه القدرة على كتـابة ما حال الموت دون كتابته من صفحاتها ؟! ٠٠

ان البعض ممن طالعوا قصة عبد الحليم عبد الله التى لم تتم يرون ان استكمالها يقربها من كمـــالها أو تمامها ، والبعض الاخر يفضلونها ناقصة ، ويرون انها تكتمـل من جهة نقصها لا من جهة اكتمالها ٠٠

ويقول اخرون : دعوا روائيا مجهولا من الجيل القادم أو من أى جيل قادم يستكمل هذه الرواية التى لم تتـم ، ان رأى فى استكمالها فائدة لاهل زمانه أو لفريق ولو صـغير من أهل زمانه ٠٠

ولكن هذا كله لا ينفى ان استكمال قصة عبد الحليم عبد الله التى لم تتم ، يغرى بالجدل ان لم يكن يغرى بالعمل ٠ وقد يكون استكمالها نوعا من تحدى الاقدار ٠٠ « وتقدرون فتضحك الاقدار » كما قال أبو العلاء المعـــــرى فى رائع سخريته ٠

على أننا لو فكرنا فى اسماء الروائيين القادرين لوجدناهم جميعا ـ الا قليلا ـ مختلفين في طريقة الكتابة الروائية عن عبد الحليم عبد الله ، وبخاصة فى روايتـه الاخيرة • فان نجيب محفوظ ويوسف السباعي واحســان عبد القدوس وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف ادريس ، مختلفــون فى الاتجاه الفكرى والتكنيك والاسلوب اللغوى ، وهم بطبيعة الحال مختلفون مع عبد الحليم عبد الله ، فلا يمكن لاحدهم ان يتم قصته التى لم تتم ••

وكذلك الجيل الاكبر سنا كتوفيق الحكيم ويحيى حقى ومحمود تيمور •

ولا يبقى بعد هؤلاء ـ ومن اليهم ممن فاتنـا ان نذكرهم ـ الا ابراهيم الوردانى وثروت أباظة ومحمود البدوى •

وهؤلاء يمكن ان نقبض على أحدهم ونقول له : أكمــل قصة عبد الحليم عبد الله التى لم تكتمل ! ••

فاذا اعتذر الوردانى لان الفروق واضـحة جدا بين لغته ولغة عبد الحليم عبد الله ، واعتذر محمود البـدوى لأكثر من سبب فني وغير فنى ، لم يبق الا ثروت أباظة •

ان ثروت إباظة هو صنو عبد الحليم عبد الله ، على الاقل فى اللغة والروح الادبية العربيـة ، فاذا اتفق له ان ينهض باستكمال قصة عبد الحليم عبد الله ، ظفر منه قراؤه بأثر روائى تكون له عندهم منزلة خاصة ! •

ورأيي المتـــواضع ـ بعد هذا كله ـ ان تمــام الروعة والاصالة في الاثر الادبى أو الفنى الذى منع الموت اكتماله ، هو أنه لم يكتمل ولا يكتمل ! •

ورواية عبد الحليم عبد الله ليست بعيدة عن هذا الرأى• الذى هو فى الحقيقة قاعدة عامة يتمسـك بها الكثيرون من جمهور الادب والفن ••

فهـرس

ص

مقدمة ٦
نجيب محفوظ و٢٣ يوليو ٧
بيت فى أقاصيص نجيب محفوظ ١١
نجيب محفوظ والشحات ١٨
نجيب محفوظ فوق النيل ٢٩
نجيب محفوظ فى السينما ٣٧
نجيب محفوظ مع عصبة ميرامار ٤٠
نجيب محفوظ فى خمارة القط الأسود ٤٧
مظلة نجيب محفوظ ٥٣
نجيب محفوظ والانسان والعسل ٥٨
حواريات نجيب محفوظ ٦١
حكاية حارة نجيب محفوظ ٦٤
نجيب محفوظ وهضبة الهرم ٦٨
حضرة المحترم نجيب محفوظ ٧٤
حرافيش نجيب محفوظ ٧٩
قهوة نجيب محفوظ ٨٣
توفيق الحكيم فى موقفين ٨٨
فتحى رضوان وفصل واحد ٩٥
يوسف ادريس مع الثيران ٩٧
يوسف ادريس والنداهة ١٠١
مصطفى محمود فى عالم الأرواح ١٠٧
...... فى الغابة ١١١
...... يقابل الشبح ١١٥

...... مع الأفيون الأصفر ١٢٠
...... صديق الانسان والقرد ١٢٥
من المادية الى التصوف.............................. ١٣٠
لحوم للمفكرين ١٣٧
أنيس منصور وبقايا كل شىء ١٤٥
صباح الخير أيها الملل ١٤٩
سقوط الحائط ١٥٣
شجرة العائلة الوجودية ١٥٩
صلاح عبد الصبور.. والجرى بين الشعر والنثر ١٦٥
حوار مع سارتروورسل ١٦٩
البعض يفضلونها ناقصة ١٧٧

الهلال

يناير ١٩٩٠ • الثمن ٧٥ قرشا

آفاق التسعينات

١٩٩٠ سنة بعد رحلة السيد المسيح

راس السنة اختراع مصري



مرآة العقل العربي

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal. V.N

رقم الايداع : ٨٨٨٢ / ٨٩

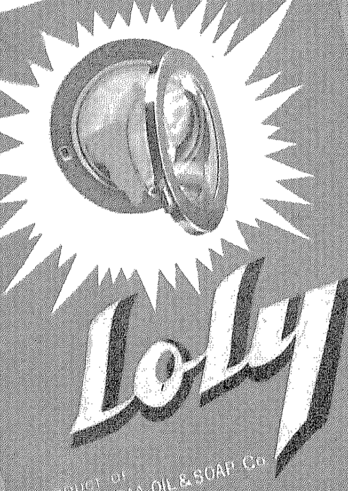
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ٤٦٣ ـ ٦

هذا الكتاب

لا يمكن إحصاء المؤلفات التى نشرت عن نجيب محفوظ ، وبخاصة بعد فوزه بجائزة نوبل سنة ١٩٨٨ ، ويمكن أن يقال إن أدب نجيب محفوظ استحوذ على إعجاب وتقدير النقاد والأدباء فى مصر وسائر البلاد العربية منذ بدأ اسمه يلمع بعد نشر ثلاثيته المشهورة ، ثم أصبح اسم نجيب محفوظ كالضوء المعلق فى الفضاء الأعلى ، يراه الناس كما يرون الرمز والحلم والافق الرفيع .

وكتاب «مع نجيب محفوظ ومعاصريه» الذى يقدمه «كتاب الهلال» بين يدى العام الجديد عام ١٩٩٠ ، هو باقة ورد يقدمها الكتاب الى الأديب الكبير المبدع الذى يتردد اسمه الان مع اسم مصر واسم الامة العربية فى أربعة انحاء الكرة الأرضية .

ويقدم كتاب «مع نجيب محفوظ ومعاصريه» عددا من كبار الادباء والمفكرين الذين عاصروا نجيب محفوظ منذ نشأته وبين الستينات والسبعينات بوجه خاص ، وحسبك من هؤلاء الاعلام : توفيق الحكيم وفتحى رضوان ويوسف ادريس وانيس منصور ومصطفى محمود وصلاح عبدالصبور ومحمد عبدالحليم عبدالله .



للغسالات الأوتوماتيكية
FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
Loly
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co
ALEX. EGYPT
لولى
• رغوة محدودة ممتدة المفعول.
• الوحيد الذى يتميز باحتوائه
على أنزيمات فعاله ....
لها القدرة على إزالة
البقع البروتينية

